مجلة ليكسوس

في التاريخ والعلوم الانسانية

مجلة علمية الكترونية محكمة

أسست بمبادرة من مجموعة الباحثين المغاربة

العدد الثالث - يونيو 2016

ضمن هذا العدد

مسار مؤرخ:

د.عبد المجيد القدوري

المشروع التاريخي للأستاذ عبد المجيد القدوري من خلال مسألة التجاوز

مجلة ليكسوس تتمنى لكم

رمضان مبارك كريم

صفحات من تاريخ العلاقات المغربية الأمريكية

صورة العدد

زيارة الملك محمد الخامس للولايات المتحدة الأمريكية سنة 1957

المساهمون في هذا العدد:

- محمد أبيهي
- عبد الحكيم الزاوي
- عمر عمالكي
- خالد أوعسو
- حمادي امهيمار
- يونس كبزيز
- بوشتى عرية
- حمزة يحي
- محمد بوالنعناع

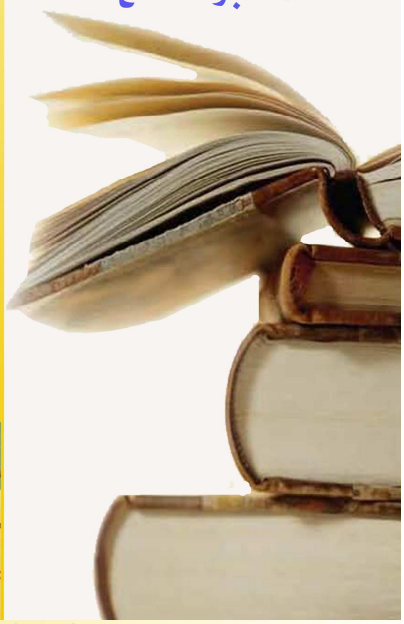

ذاكرة مدن في صور

ذاكرة مدينة طنجة

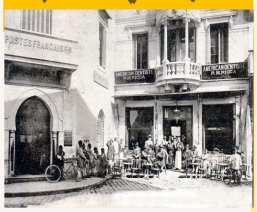

قضايا تاريخ الجنوب المغربي

الأعراف القبلية وتنظيم المجتمع

الرحلات والتاريخ

رحلات مغربية وفرنسية

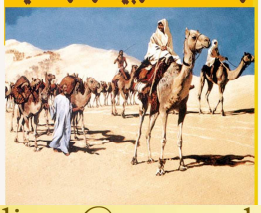

البريد الالكتروني lixus@maroc-histoire.com

محاور العدد

- **قضايا منهجية** أسئلة التاريخ القروي بالمغرب . مفهوم المجتمع البدوي والواحي-التاريخ:قضايا وإشكالات
- **تاريخ المغرب** التاريخ القديم لشمال إفريقيا . جوائح مغرب القرن ١٦م . التاريخ البحري
- **الرحلات** الرحلات الفرنسية الى المغرب . الرحلة إلى السودان الغربي

جميع الحقوق محفوظة لمجلة ليكسوس الالكترونية

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

www.maroc-histoire.net

تنسيق وتصميم:محمد أبيهي

مجلة ليكسوس
في التاريخ والعلوم الانسانية
مجلة علمية الكترونية محكمة

موضوعات العدد الثالث - يونيو 2016

البريد الالكتروني lixus@maroc-histoire.com

المساهمون في هذا العدد:

- محمد أبيهي
- عبد الحكيم الزاوي
- عمر عمالكي
- حمادي امهيمار
- يونس كبزيز
- بوشتى عرية
- حمزة يحي
- محمد بوالنعناع

مسار مؤرخ:المشروع التاريخي للأستاذ عبد المجيد القدوري من خلال مسألة التجاوز

ذاكرة مدن من خلال صور:مدينة طنجة

محمد أبيهي

الرحلات الفرنسية نحو المغرب بين مشروعي الحركة التبشيرية والبعثة العلمية

عبد الحكيم الزاوي

أسئلة التاريخ القروي بالمغرب:من السوسيولوجيا الكولونيالية نحو المونوغرافية التاريخية.

حمادي امهيمار

دور الأعراف القبلية في تنظيم حياة القبائل بمجال البيضان

يونس كبزيز

التاريخ القديم لحضارة وشعوب شمال إفريقيا قراءة في الاسم والأصل

حمزة يحي

الرحلة إلى السودان الغربي عبر الصحراء خلال العصر الوسيط

عمر عمالك

القرصنة المتأخرة بالمغرب قراءة من منظور جديد

محمد بوالنعناع

المجتمع البدوي والواحي: دراسة مفاهيمية تحليلية

خالد أوعسو

التاريخ :قضايا وإشكالات

اشراف وتصميم:ذ.محمد أبيهي

من ثمرات المطابع

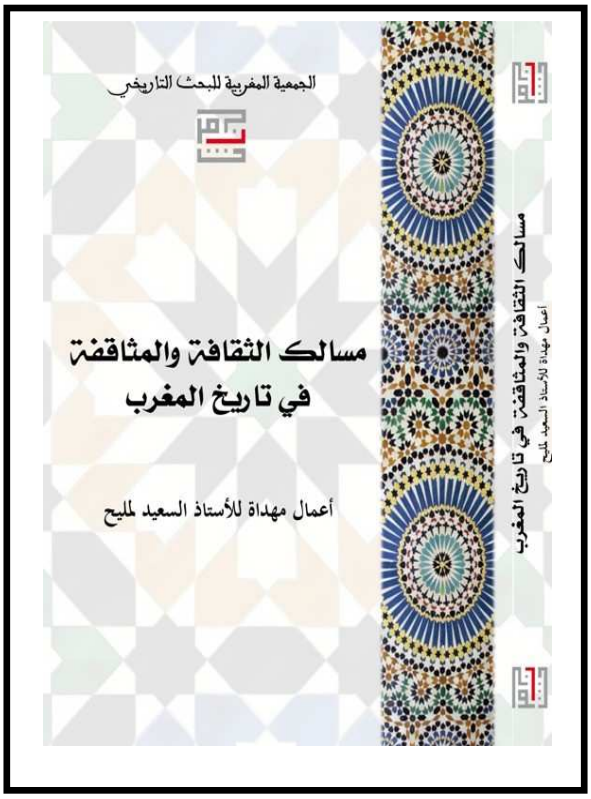

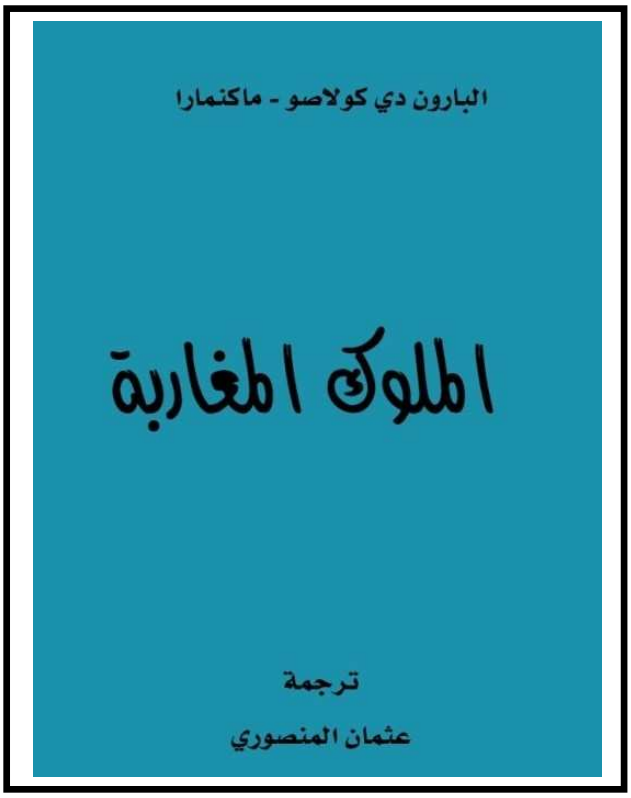

فهرس محتويات المجلة

ـ كلمة الافتتاح	5
ـ مسار مؤرخ:المشروع التاريخي للأستاذ عبد المجيد القدوري من خلال مسألة التجاوز	6
ـ ذاكرة مدن من خلال صور:مدينة طنجة	10
ـ محمد أبيهي،الرحلات الفرنسية نحو المغرب بين مشروعي الحركة التبشيرية والبعثة العلمية	12
ـ عبد الحكيم الزاوي،أسئلة التاريخ القروي بالمغرب:من السوسيولوجيا الكولونيالية نحو المونوغرافية التاريخية.	18
ـ حمادي امهيمار،دور الأعراف القبلية في تنظيم حياة القبائل بمجال البيضان	21
ـ ذ.يونس كبزيز،التاريخ القديم لحضارة وشعوب شمال إفريقيا قراءة في الاسم والأصل	35
بوشتى عرية، جوائح القرن 16م وآثارها على التشكيلة الاجتماعية بالمغرب	49
ـ حمزة يحي،الرحلة إلى السودان الغربي عبر الصحراء خلال العصر الوسيط	57
ـ عمر عمالكي، القرصنة المتأخرة بالمغرب قراءة من منظور جديد	67
ـ محمد بوالنعناع،المجتمع البدوي والواحي: دراسة مفاهيمية تحليلية	85
خالد أوعسو،التاريخ :قضايا وإشكالات	105

كلمة الإفتتاح:

أدرجت مجلة ليكسوس الالكترونية في عددها الثالث محاور جديدة، قصد التنوع في المواضيع ذات الصلة بالتاريخ والعلوم الإنسانية،وقد أغنى محتويات هذا العدد باحثين من المغرب، وهذا يعكس انفتاح مجلة ليكسوس على كل الباحثين بالمغرب وخارجه، وذلك لهدف تثمين التبادل المعرفي والعلمي بين الباحثين،وإيمانا من المجلة بضرورة ربط أواصر التعاون وتبادل الخبرات بين المهتمين في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية، لتكون رافدا ومرجعا علميا للطلاب والباحثين بالمغرب وخارجه.

ويسعد طاقم مجلة ليكسوس أن يقدم للقارئ الكريم موضوعات العدد الثالث، وهي عبارة عن إسهامات علمية لثلة من الباحثين في حقل الدراسات التاريخية، واشتمل هذا العدد على محاور تهم قضايا تاريخ الجنوب المغربي،كما أدرجت مقالات تهم الرحلات إلى بلاد السودان والرحلات الفرنسية إلى المغرب،بالإضافة إلى تاريخ القرصنة البحرية بالمغرب، كما أثيرت في هذا العدد بعض القضايا المنهجية المتعلقة بمفهوم المجتمع الواحي وأسئلة تهم التاريخ القروي بالمغرب، وافتتحت المجلة على التعريف ببعض المؤرخين والباحثين المرموقين في حقل الدراسات التاريخية، والهدف من ذلك عرض تجاربهم ومشاريعهم البحثية، واختير في هذا العدد الأستاذ العميد عبد المجيد القدوري، لما له من إسهامات نظرية ومنهجية في الحقل التاريخي ببلادنا.

وأملنا جميعا أن تكون هذه المساهمات العلمية إضافة بيبلوغرافية نوعية للقارئ الكريم، لتسليط الضوء عن بعض القضايا التاريخية، وكلنا أمل أن تكبر مجلة ليكسوس الالكترونية بفضل تفاعلكم معنا قراء وكتابا، وذلك لنشر المعرفة التاريخية على نطاق واسع، وننتظر مساهماتكم ومقالاتكم لاغناء هذا المشروع التاريخي الالكتروني، لكي يكون منارة وقنطرة للباحثين والتعريف بانتاجاتهم التاريخية. وفي الختام نشكر كل من ساهم في إثراء العدد الثالث من مجلة ليكسوس، وموعدنا سيتجدد إن شاء الله في العدد الرابع من هذا المولود الالكتروني الجديد ، ليواصل إصداراته الالكترونية لتعم الفائدة جميع المهتمين بالمعرفة التاريخية داخل وخارج المغرب.

محمد أبيهي

المشرف على مجلة

ليكسوس الالكترونية lixus.magazine@gmail.com

مسار مؤرخ:
د.عبد المجيد القدوري

المشروع التاريخي للأستاذ عبد المجيد القدوري من خلال مسألة التجاوز

بقلم:محمد أبيهي

- من مواليد سنة ١٩٤٩.
- درس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
- الإجازة في التاريخ سنة ١٩٧١م.
- دبلوم الدراسات العليا سنة ١٩٨٤م.
- دكتوراه الدولة سنة ١٩٩٦م.
- أستاذ بثانوية مولاي عبد الله بالدار البيضاء مابين ١٩٧١م و ١٩٧٨م.
- أستاذ بالمركز الجهوي درب غلف الدار البيضاء ١٩٧٨ ـ ١٩٨٠م.
- عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بن مسيك الدار البيضاء ٢٠٠٤ ـ ٢٠١٣م.
- مؤسس ومشرف على وحدات التكوين والبحث:المغرب وأوربا
- المغرب والعوالم الغربية
- تأطير أطروحات جامعية في حقل الدراسات التاريخية.
- له مؤلفات في التاريخ وفي الذهنية المغربية،منها:
  - ابن أبي محلي الفقيه الثائر الرباط ١٩٨١م
  - سفراء مغاربة في أوربا ١٩٩٤
  - المغرب وأوربا ومسألة التجاوز ٢٠٠٢

ـــ تقديم:

كان مسار الدكتور عبد المجيد القدوري حافلا بالعطاءات العلمية، التي أغنت المكتبة الوطنية بأعمال تاريخية، وقد تعددت اهتماماته البحثية لتشمل دراسة التاريخ ورصد الثابت والمتحول في الذهنية المغربية،وكذلك اهتمامه الواسع بالتاريخ البحري والدبلوماسي، وتعتبر علاقة المغرب بأوربا ومسألة التجاوز من بين القضايا، التي اشتغل عليها الأستاذ عبد المجيد القدوري في جل كتاباته، وهي في الأصل موضوعا لأطروحة نال بها شهادة دكتوراه الدولة بجامعة محمد الخامس سنة 1996م، تحت إشراف عميد المؤرخين المغاربة د.محمد حجي رحمه الله، وقام بطبعها سنة 2002 بعنوان:**المغرب وأوربا ما بين القرنين 15 و 18م ومسألة التجاوز**، وهو حصيلة مجهود علمي رصين، كان نتاج إلمام كبير بمفاهيم التاريخ الإشكالي المستمدة من أسس مدرسة الحوليات الرائدة في حقل الدراسات التاريخية المعاصرة.فما هي الخطوط العريضة للمشروع التاريخي للأستاذ عبد المجيد القدوري؟ وما هي المنطلقات النظرية والفكرية لمسألة التجاوز؟

تمحورت إشكالية هذا العمل التاريخي الرصين حول إثارة قضية محورية، وهي مسألة التجاوز والحداثة الأوربية، لما لها من امتدادات تاريخية وحضارية على المغرب منذ الاحتلال البرتغالي لمدينة سبتة سنة 1415م، وقد شكل هذا التاريخ بمثابة تحقيب بداية تجاوز أوربا للمغرب حسب الأستاذ عبد المجيد القدوري، وانطلق من هذا التاريخ لتقييم مسألة التجاوز انطلاقا من التاريخ الحديث للمغرب، واعتبره مؤشرا قويا لبداية منعطف التجاوز، الذي يتجلى في الامتداد الأوربي والانكماش والتراجع المغربي،[1] وما ميز هذه العلاقات هو تأرجحها بين مستويات التقطع والاستمرار نتيجة الصراع والاصطدام بين المغرب وأوروبا، الذي اتخذ طابع الجهاد لصيانة الهوية المغربية من التهديدات الخارجية.[2]

ربط الأستاذ عبد المجيد القدوري مسألة التجاوز بمفاهيم الحداثة والتحديث والعقلنة، وهي مفاهيم لازمت أوربا الحديثة منذ بزوغ النهضة الأوربية، وعمل على تأصيلها التاريخي في مشروع علمي متكامل،معتمدا في تحليله على المدى الطويل لفهم أعمق وأشمل للتحولات التي مر منها المغرب، بهدف الإجابة عن العوامل والأسباب التي حالت دون تقدم المغرب، واقفا على المرجعية الذهنية التي كانت وراء فشل الفعل السياسي السلطاني بالمغرب، وربطه بمفهوم العقل،ثم تساءل عن مفهوم العقل والعقلانية في كل من أوربا والعالم والإسلامي؟ فهذا المفهوم لم يكن يساير التحولات التاريخية بأوربا،حيث أشار بأن أوربا تلجأ إلى تمجيد العقل والعقلانية لتميز نفسها عن غيرها.

لاحظ الأستاذ القدوري الفراغ الدبلوماسي الذي كان يعاني منه المغرب،فالمغاربة كانوا يجهلون الأخر الذي يهدد سيادة البلاد،وهو ما أضعف الموقف الدبلوماسي التفاوضي للمغرب في علاقته مع أوربا خلال العصر الحديث، وقد تحكمت علاقات دار الإسلام بدار الحرب في توجيه العلاقات الدبلوماسية المغربية الأوروبية، فالسفارة والعمل الدبلوماسي في أوروبا استمرارية لمؤسسة واضحة المعالم، وتسهر على رعاية مصالح الدولة الأوروبية والعمل على تقويتها،[3] بينما لم

---

[1] عبد المجيد القدوري،المغرب وأوروبا ما بين القرنين 15 و 18 مسالة التجاوز،الطبعة الأولى،المركز الثقافي العربي،الدارالبيضاء،2002م ،ص:379

[2] المرجع نفسه،ص:73.

[3] القدوري عبد المجيد،دبلوماسية المأمورية/دبلوماسية التأسيس، ندوة التاريخ والدبلوماسية قضايا المصطلح والمنهج،تنسيق د.عبد المجيد القدوري،سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105،الطبعة الأولى 2003،ص256.

تصل إلى هذا المستوى بالمغرب، نظرا للتأخر الكبير الذي ميز أداء الدبلوماسية المخزنية بسبب التنافس الامبريالي حول المغرب،[4] ينضاف إليه إهمال المخزن لإيفاد مترجمين من ذوي الكفاءة والثقة أثناء التفاوض مع الآخر،[5] وظلت هذه المسألة ملازمة للفعل الدبلوماسي المغربي منذ قرون،[6] بفعل عدم اهتمام المخزن بتكوين الأطر التي يكلفها بمهام في البلدان الأجنبية،[7] خصوصا على المستوى التكوين في اللغات الأوروبية،[8] وكان لهذا الفراغ الدبلوماسي أثر كبير على تأخر المغرب أمام الركب الحضاري الأوربي،ليدشن بعد ذلك سلسلة من الإصلاحات لتجاوز تداعيات وانعكاسات الضغط الأوربي على المجتمع.

كانت المحاولات التحديثية التي عرفها المغرب محاولات انعدمت فيها الاستمرارية والتراكم لأنها كانت رسمية ومرتبطة بالظرفية التاريخية، ووقف الأستاذ عبد المجيد القدوري على جوانب من الإصلاحات التحديثية السعدية لكل من عبد المالك المعتصم وأحمد المنصور، وتحدث عن أهمية حدث الانتصار في معركة وادي المخازن التي أعطت للمخزن هيبة على المستوى الداخلي والخارجي، ليستعرض المحاولات التحديثية العلوية في عهد السلطان محمد بن عبد الله(1757-1790)، الذي يعود له الفضل في يقظة المغرب الحديث ضد المناورات الأوربية،ويتساءل القدوري عن مآل هذه الإصلاحات بالرغم من أهميتها، مؤكدا فشلها لأنها جاءت من القمة، و لم تكن متجذرة في هياكلها الاجتماعية والاقتصادية، وظلت حبيسة المنظور السلطاني، أما التجربة الإصلاحية الأوربية فكانت قائمة على نجاح مناهج الأنظمة التربوية المعتمدة على التجربة والملاحظة والعمل الورشي،

---

[4] تساءل الأستاذ عبد المجيد القدوري حول مفهوم الدبلوماسية وعلاقاتها بالسفارة المغربية إلى أوروبا، قائلا: «...وإذا كان السفر لغة هو قطع المسافة، والإنسان المسافر هو الإنسان كثير الأسفار، فما هو مدلول السفير؟ وإلى أي حد يمكن نعت المغاربة الذين زاروا أوروبا في مهام رسمية ما بين 1610م و 1922م بالسفراء؟ فلكلمة ﴿ Embajador ﴾ أو ﴿Ambassadeur﴾ مدلول مرتبط ــ بالتأكيد ــ بواقع أوروبا، وبعبارة أصح، بمؤسسات الدبلوماسية في الدولة الأوروبية الحديثة...»،رسالة من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني إلى المولى الحسن،ابن زيدان، إتحاف،م.س،ج الثاني، ص ص:360-362.

[5] م.ن،ص374.

[6] جاء في رسالة السفير الغزال إلى وزراء السلطان،التي يشتكي فيها حول ضعف تكوين مرافقيه إلى أوروبا،قائلا: ‹‹...إني أريد منك أن تعرف أمير المؤمنين أن هذين الرجلين لا معرفة لهما بقوانين النصارى وأني قد خفت عاقبة الأمر فيما ينشأ عن رأيهما فلا يؤاخذني أمير المؤمنين بشئ من ذلك إن كان...›› الناصري أحمد بن خالد،الاستقصاء، م.س،ج السابع،ص ص:34.

[7] القدوري عبد المجيد،دبلوماسية المأمورية/دبلوماسية التأسيس...،م.س،ص268.

[8] القدوري عبد المجيد،المغرب وأوربا...،م.س،ص:332.

لأنها تساير التحولات والطموحات التي كانت تحرك أوربا، وبرر الأستاذ القدوري تراجع المناهج التعليمية بالمغرب بارتباطه بالذهنية الشرعية،[9] حيث لم يشهد المغرب تحولات اقتصادية واجتماعية، التي من شأنها أن تخلف مشاريع تربوية إصلاحية.

ـــ خلاصة:

اعتمد الأستاذ القدوري في تناوله لمسألة التجاوز في تاريخ المغرب الحديث على منهجية مؤرخ الذهنيات، واستنطق جوانب خفية من تاريخ المغرب الحديث من القرن 15م إلى القرن 18م، مبرزا المرجعية الذهنية لهوة التجاوز،راجعا أسباب أزمة المغرب إلى عدم مسايرة ذهنية روح الرأسمالية التجارية والصناعية الأوربية، التي ظلت بعيدة عن الذهنية المغربية.فالتجاوز عند الأستاذ القدوري مرتبط بالعقلانية والحداثة الأوربية، التي وسعت من هوة علاقة المغرب بأوربا، وهو مشروع تاريخي، مازال مفتوحا على قضايا وإشكالات عديدة بحكم التغيرات الطارئة على علاقة المغرب بأوربا ما بعد القرن 18م، وكان للأستاذ القدوري الفضل في تأطير العديد من الأطاريح الجامعية في حقل الدراسات التاريخية، فجلها كان منصبا على تاريخ الذهنيات ورصد علاقة المغرب بالعوالم الغربية في شتى تجلياتها التاريخية والسياسية والاقتصادية.

[9] القدوري عبد المجيد،المغرب وأوربا...،م.س،ص:378.

ذاكرة مدن من خلال صور:مدينة طنجة

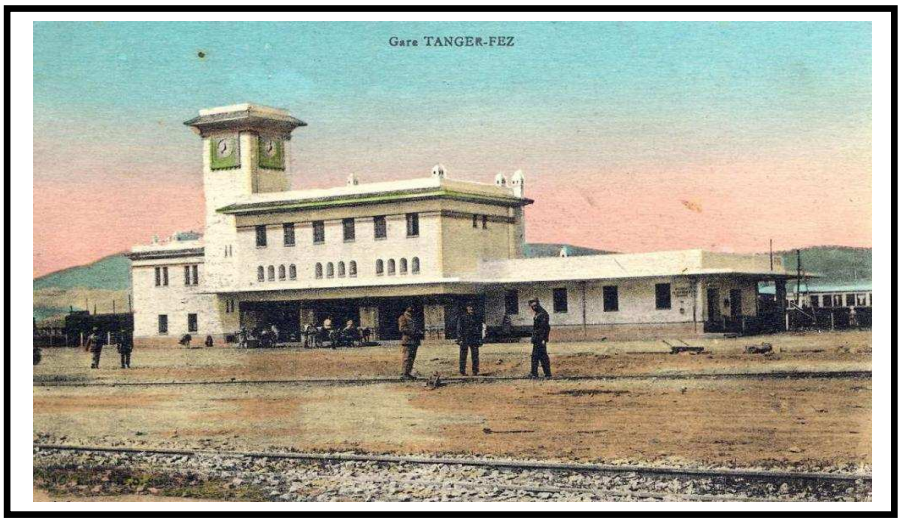

TANGER — Petit Socco

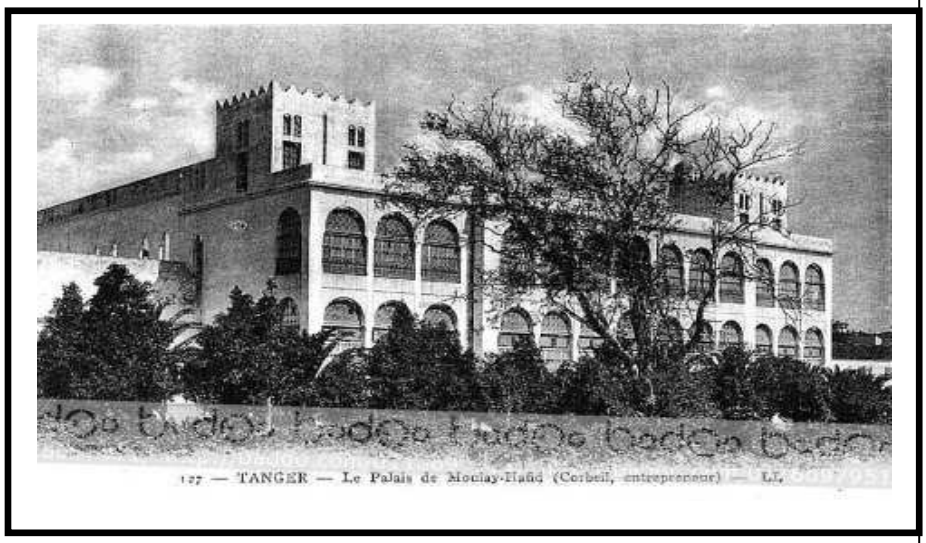
127 — TANGER — Le Palais de Moulay-Hafid (Corbeil, entrepreneur) — LL

GRAND CAFÉ CENTRAL

تاريخ المغرب المعاصر

الرحلات الفرنسية إلى المغرب بين مشروعي الحركة التبشيرية والبعثة العلمية

محمد أبيهي
باحث في تاريخ
المغرب المعاصر

دشنت القوى الأوروبية مرحلة اكتشاف العوالم المغربية،وأصبحت فرنسا تتنافس مع القوى الرأسمالية الأوربية في رصد أوضاع المغرب لأهداف استعمارية، من خلال معرفة المناطق النائية ودراسة كل ما يتعلق بتاريخ المغرب وحضارته ورصد معالمه الجغرافية والاثنولوجية، وتجلت مظاهره في التسرب السلمي إلى مؤسساته بذريعة ممارسة الطب أو الجولان في المناطق النائية، دعمت فرنسا رحلاتها نحو المغرب،واستخدمت لهذه الغاية أسلوب البعثات العلمية الاستكشافية كسلاح للغزو العلمي،وذلك لتحليل بنيات المجتمع المغربي في أفق التمهيد لاحتلاله عسكريا. فما طبيعة الرحلات الاستكشافية الفرنسية للمغرب؟ وما هي مشاريعها العلمية ؟ وما هي خلفياتها التبشيرية؟

1- بزوغ الامبريالية الفرنسية وتمويل الرحلات نحو المغرب:

عبأت الأحزاب الاستعمارية الفرنسية منذ سنة 1890م الرأي العام الفرنسي على القيام بحملة كولونيالية موسعة من أجل تعزيز المصالح الاقتصادية بأفريقيا، وتزعمت اللوبيات السياسية البرلمانية هذه الحملة، ويعتبر أوجين اتيان(Eugéne Etienne) من المناصرين للنزعة الاستعمارية الفرنسية.[10] اتجهت الرحلات الفرنسية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى التعرف على المغرب في إطاره العلمي، وارتبط هذا المشروع برحالة برعوا في وصف اثنوغرافية المغرب وتعرية سكانه وتكوينه الفيزيائي والجيولوجي. ونجد على سبيل المثال: الرحالة الفرنسي طوماسي(R.Thomassy)، وديفيريه (Duveryer) ، الذين وسعوا نشاطهم الاستكشافي ليشمل مختلف مناطق المغرب، وتحولت هذه الرحلات الاستكشافية إلى أهداف تبشيرية لنشر المسيحية،وخلصت إلى بحوث مؤسساتية مؤازرة من طرف أجهزة السلطة الفرنسية والحاكم العام بالجزائر ووزارة الخارجية الفرنسية.[11] وعملت غرفة المجموعة الاستعمارية بالبرلمان الفرنسي على تمويل الرحلات الاستكشافية الفرنسية وتقديم الدعم للبعثة العلمية وروادها الكبار،[12] وازدادت الأطماع الفرنسية في المغرب بعد فرض حمايتها الاستعمارية على كل من الجزائر سنة 1830م وتونس سنة 1881م، وذلك للاستحواذ على طرق تجارة القوافل والوصول إلى المناطق الرئيسية في السودان الغربي، وهكذا بدأت فرنسا في إرسال بعثات الاستكشاف بمختلف المدن المغربية وداخل الصحراء بدعوى رسم الخرائط، أو القيام بالأبحاث العلمية، أو لنشر المسيحية في صفوف ساكنة المغرب، ويعتبر شارل دوفوكو من أبرز هؤلاء الرحالة.

---

[10] **تقلد أوجين مناصب عدة أبرزها نائب غرفة التجارة بمدينة مارسيليا، وتولى ما بين 1889 و 1892 منصب كاتب الدولة في المستعمرات، وتزعم الفريق البرلماني المدافع عن السياسة التوسعية الفرنسية، وكما ترأس كذلك فريق اليسار الديمقراطي بالبرلمان الفرنسي.**

-Marie-France Dartois, Agadir et le Sud marocain : A la recherche du temps passé - Des origines au tremblement de terre du 29 février 1960, Editions de Courcelles ,Décembre 2008,P :440.

[11] **تعددت كتابات الرحالة الفرنسيين،التي حاولت منذ احتلال الجزائر التعرف على المجال المغربي،ونستحضر في هذا الصدد:**

R. Thomassy:-De la Colonisation militaire de l'Algérie,Éditeur A. Bertrand, 1840
-Le Maroc: relations de la France avec cet empire,Éditeur Librairie de Charles Douniol, 1859.

[12] Marie-France Dartois, Agadir et le Sud marocain, op,cit,P :440.

2- شارل دوفوكو ومشروع الحركة التبشيرية:

ولد شارل دوفوكو(*Charles de Foucauld*) بمدينة ستراستبورغ سنة 1858م،واغتيل في فاتح دجنبر سنة 1916م بواحة تمنارست بالجنوب الجزائري، والتحق بالجيش الفرنسي بالجزائر سنة 1880م برتبة ليوتنان، واستأذن في سنة 1883م للقيام برحلة استكشافية إلى المغرب. وتلقى شارل دوفوكو تربية وثقافة دينية على يد أبيه المتشبع بالمسيحية والمنتمي لأسرة أرستقراطية عريقة، وعاش دوفوكو الطفل سنوات صعبة خلال حرب 1870م بين ألمانيا وفرنسا، وبعدها تنقل خلالها بين ستراسبورغ ونانسي(Nancy)،[13] وكانت رغبة دوفوكو في أن يكون أكبر رجل دين مسيحي في وسط مسلم، حيث تبنى فكرة دعم حملة التوسع العسكري الاستعماري الفرنسي بشمال إفريقيا والصحراء، ودامت رحلته من 20 يونيو 1883م إلى 23 مايو سنة 1884م.[14]

تنكر شارل دوفوكو في لباس يهودي،[15] ذلك أن المغاربة اعتادوا على رؤيتهم يوميا، وكان دوفوكو يخفي وراءه آلات لمعرفة الطريق، وقدم نفسه في المناطق التي مر منها بهويات مختلفة لتمويه الناس، وتوسط له اليهودي أبو سرور لتيسير تنقلاته أثناء جولانه بالمغرب، وعمل على نشر أفكاره المسيحية وإدماج السكان في الحضارة الفرنسية وتنصيرهم،وقام بدراسة المناطق المجهولة التي لم يدخلها سابقوه، معتمدا على أساليب احتيالية كالتهود، والتظاهر بالشيخوخة والبساطة.[16]

لم يستطع الرحالة الألمان رولفز ولا لينتز الوصول إلى الملاحظات التي سجلها دوفوكو حول جغرافية المغرب، حيث استطاع رسم دليل قدر ب 12,203 كيلومتر منذ أن بدأ رحلته سنة 1883م، وكانت معلوماته دقيقة مسجلا كل ما يتعلق بالسكان وعاداتهم وتقاليدهم، ولقي دعما كاملا من طرف التمثيليات القنصلية الفرنسية بالمدن المغربية، وتحدث دوفوكو عن الصعوبات التي

---

[13] أحمد الأزمي،رحلة دوفوكو إلى المغرب **1883ـــ1884**م،الرحلة والغيرية،تنسيق عبد الرحيم بنحادة وخالد الشكراوي،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،سلسلة ندوات ومناظرات،رقم:**148**،الطبعة الأولى،**2008**م،ص:**70**.

[14] م.ن،ص:**73**.

[15] بوشعراء مصطفى،الاستيطان والحماية بالمغرب،ج الأول،م.س،ص:1529.

[16] أبو عمران الشيخ،شارل دوفوكو في تامنراست،مج التاريخية المغربية، عدد 17ـــ18،يناير 1980،ص ص:141ـــ142.

رافقت رحلته من سوس إلى موكادور،وعبر عن شكره العميق لحسن الاستقبال الذي حظي به من طرف مونطيل(Montel) مستشار قنصلية فرنسا بالصويرة.[17]

أظهر دوفوكو مشروعه التبشيري أثناء إقامته ببني عباس،[18]وقد أعجب في 3 يوليو 1903م بانجازات الرحالة ساكتراك (Ségonzac) الذي تنكر في زي مغربي،[19] ليتم أسره سنة 1905م في منطقة أنزي على الطريق بين تارودانت وتزنيت، ووزع بعض الأدوية على آسريه لكسب ودهم والتخفيف من معاناة الأسر. نال دوفوكو ميدالية ذهبية من قبل الجمعية الجغرافية بباريس،وقدم دوفيريي(H.Duveyrier) تقريرا سنة 1885م عن رحلة دوفوكو وانجازاته الاستكشافية حول المغرب.[20]

نخلص إلى أن رحلة شارل دوفوكو قد حققت من الناحية العلمية نتائج ميدانية بالغة الأهمية، لما تضمنته من وصف دقيق للسكان وعاداتهم في اللباس والطعام والعمل وتقاليدهم ولهجاتهم، والذي زاد من قيمة المعلومات التي قدمتها رحلته، كونها اعتمدت منهج الملاحظة بالتعايش، واعتبرت رحلته مرجعا مهما لدى رواد البعثة العلمية الفرنسية والأوساط الاستعمارية بالمغرب،[21] حيث ساعدها على تحصيل تراكم معرفي حول جغرافية المغرب، ممهدا لها الطريق للتغلغل الاستعماري الفرنسي فيه، وواكب ذلك حملة دعائية واسعة من أجل تحقيق حلم الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية الإفريقية.

3 - البعثة العلمية والتغلغل السلمي الاستعماري إلى المغرب:

نتج عن الاحتلال الفرنسي للجزائر تطور في البحث السوسيولوجي الكولونيالي الفرنسي في شمال إفريقيا، حيث أسست في سنة 1870م مدرسة للآداب بالجزائر العاصمة تحت إدارة ريني باسي(Renne Basset)، وتأسست البعثة العلمية بالمغرب في سنة 1903م لينطلق بذلك مسلسل التغلغل الاستعماري، حيث حدد ميشو بلير المدير الثاني للبعثة العلمية سنة 1907م هدفها، الذي

---

[17] دوفوكو شارل،التعرف على المغرب 1883ـــ1884م،ترجمة المختار بلعربي،إشراف الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، منشورات الدار البيضاء،دار الثقافة للنشر و التوزيع ,1999 ،ج.الأول،ص:249

[18] *يقول دوفوكو في هذا الصدد:«...إن وجودي في بني عباس على الحدود لدليل على نيتي في التبشير.»*

-G.Gorée,Au service du Maroc,Ch.de Foucauld,Ed.Grasset,Paris,1936,P :167.

[19] G.Gorée,Au service du Maroc,Ch.de Foucauld,Ed.Grasset,op,cit,PP :167-169 .

[20] أحمد الأزمي،رحلة دوفوكو إلى المغرب **1883ـــ1884م**،م.س،ص ص:**75ـــ76**

[21] ن.م،ص:**69**.

يتمثل في دراسة النظام الاجتماعي والسياسي للمغرب بواسطة جمع المعلومات الشفوية وتقاليد القبائل ومؤسساتها الدينية.[22] واعتمدت الرحلات والبعثات الفرنسية بالمغرب قبل الحماية على إنجاز أبحاث استكشافية، هدفت إلى التقاط سريع للمعلومات حول أوضاع المغرب في إطار مهام استطلاعية، ومثلت هذه الدراسات الأطماع التوسعية للرأسمالية الفرنسية التي روجت لفكرة احتلال المغرب، انطلاقا من أسس علمية، لذلك بادرت إلى تعيين علماء لسانيين وسوسيولوجيين وجيولوجيين وجغرافيين لأجل دراسة ميادين الضعف والقوة في المجتمع المغربي، وأبرز ميشو بلير(Michaux-Bellaire) أهمية هذا المشروع في بناء عمل جماعي،يعود نفعا على السياسة الأهلية.[23] انصبت جهود ميشو بلير على إعداد مونوغرافيات حول المغرب، شملت إعداد جملة من المؤلفات والكتب من قبيل أرشيفات المغرب، ومجلة العالم الإسلامي. وأرسل ادموند دوتي إلى المغرب بين سنتي 1900م و 1901م لدراسة المناطق التي لم تتصل بعد بالحداثة الأوربية، من أجل الإعداد لإدماج المغرب في دائرة التأثير الفرنسي، وأسفر عمله عن تقرير بعنوان ‹‹وسائل تطوير التأثير الفرنسي في المغرب 1900م››، وقام كذلك بتكليف من لجنة المغرب(Le comité du Maroc) بخمسة أسفار ورحلات رئيسية دراسية إلى المغرب، مركزا على الحوز ومراكش، مرورا بأزمور، ودكالة، والرحامنة، ونشر كتابه ‹‹مراكش›› سنة 1905م بموافقة لجنة المغرب.[24]و أنجزت بعثة علمية فرنسية دراسة علمية هيدروغرافية للمجال الجغرافي وموارده المائية في سنة 1904م، واستنتجت أهمية المناطق الزراعية بالشمال وما توفره من إمكانيات فلاحية هائلة.[25]

[22] Michaux Bellaire,la mission scientifique au Maroc:conférence faite au Cours des affaires indigènes,1925,P :4.

[23] George Drague, Esquisse d'histoire religieuse du Maroc,Peyronnet,Paris,1951,P :3

[24] Doutté, Edmond (1867-1926),Merrâkech,PUB,comité du Maroc,1905,PP :2-3

[25]Henri Froidevaux,une mission hydrographique Francaise au Maroc,Questions diplomatiques et coloniales, R.P.E ,directeur Henri Pensa. 1897-1914,P :786

حاصل القول،استطاعت البعثة العلمية الفرنسية مراكمة رصيد معرفي حول سوسيولوجية واثنوغرافية المجال المغربي، مما مكنها من ضبط هذا المجال ومعرفة مختلف مكوناته، وانفردت بالتالي عن الرحلات الألمانية بتوظيفها لسلاح الغزو العلمي لضبط هذا المجال، ومكنها من تسهيل عمليات التغلغل الاستعماري بالمغرب انطلاقا من المنطقة الشرقية، وكانت الرحلات الفرنسية مغلفة بغطاء نشر المسيحية، وهو توجه نابع من رغبة فرنسا في ربط البلاد حضاريا بالمغرب الروماني، الذي اعتبرته القيادات الاستعمارية امتدادا طبيعيا للاستعمار الفرنسي لشمال إفريقيا.

مناهج التاريخ

أسئلة التاريخ القروي بالمغرب:من السوسيولوجيا الكولونيالية نحو المونوغرافية التاريخية.

عبد الحكيم الزاوي
باحث

أثارت أسئلة السوسيولوجيا القروية بمغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قضايا تاريخية حارقة، ورمت بقضايا النسق الاجتماعي والاقتصادي داخل معترك المؤرخ، بعد أن كان حكرا على الاثنولوجيين والسوسيولوجيين، وفيما بعد الانتروبولوجيين، بل وطرحت أمامه فضاء خصبا، واعدا، للمعالجة والتأويل، وإعادة بناء وتركيب الماضي من نافذة جديدة، كما وضعته ولأول مرة أمام تاريخ الأنساق، البنيات، والذهنيات، من بوابة تفكيك الثالوث الفاعل في تاريخ المغرب الماقبل الكولونيالي.

وبعيدا عن خلفيات هذا التأليف الاسطوغرافي في تقديم مداخل معرفية تستمرها أجهزة الإدارة الاستعمارية ضمن مسلسل التهدئة الأمنية، وعلى الرغم من التحفظات التي أبداها البعض من الباحثين فيما يتعلق بمصداقية وعلمية هذا التأليف، يبقى من الإنصاف الاعتراف بقيمته في طرح قضايا معقدة في تحليل النسق الاجتماعي بمغرب ما قبل الاستعمار، وفي دفع مختصي الزمن إلى البحث عن جذور الأزمة المغربية واعطاب البنية الاجتماعية والاقتصادية وعدم مسايرتها للزمن التاريخي.

لقد شكلت القبيلة المغربية كنسق اجتماعي خلال القرن التاسع عشر نقطة التقاء عديد من الباحثين بالمغرب، اثنولوجيين، سوسيولوجيين، وفيما بعد أنتروبولوجيين بل وحتى جغرافيين، يجمعهم قاسم مشترك، محاولة فهم الذهنيات، أنماط العيش، العادات، العقليات،التمثلات الرمزية... بهدف صياغة تصورات حول طبيعة اشتغال النسق القبلي، وعلاقته بالسلطة المركزية (المخزن) وبالسلطة الدينية (**الزوايا**).

يدخل ضمن هذا السياق، الأبحاث الكبرى التي قادتها البعثة العلمية الفرنسية في بداية القرن الماضي، ونخص بالذكر، ادموند ميشو بلبير حول (قبائل منطقة الهبط، 1911م، ومنطقة الغرب، 1913)، وادوارد فسترمارك حول (الطقوس والمعتقدات الزراعية، 1913)، وادموند دوتي (الحياة القبلية 1914)، واميل لاووست (لسانيات أمازيغية، 1920)، وروبير مونتاني (الأمازيغ والمخزن، 1930)، وجورج سبيلمان (قبائل أيت عطا، 1936).

غداة الاستقلال، سيتواصل البحث السوسيولوجي القروي بالمغرب برؤية جديدة، ونفس جديد، متحررة نسبيا من الكليشيهات الكولونيالية، تيار جديد سيدفع البحث السوسيولوجي نحو المساءلة والنقد، وسيعيد قراءة الاسطوغرافيا الكولونيالية من زاوية البحث الميداني والقياس الكمي للظواهر الاجتماعية، ارتبطت بهذا الاتجاه، أسماء وازنة مثل جاك بيرك (البنيات الاجتماعية في الأطلس الكبير،1955)، وبول باسكون (حوز مراكش، 1977،) وكذا دراسات بعض الجغرافيين أمثال جون دريش (أنماط العيش في جبال الأطلس، 1941) وجون لوكوز (الفلاحون والمعمرون في منطقة الغرب، 1964)، ودانييل نوان (الساكنة القروية بالمغرب، 1970)، وجون فرانسوا تروان(الاسواق القروية في شمال المغرب، 1975)، وويل سويرينجن (سراب التحول الزراعي خلال الحماية وبداية الاستقلال، 1987). ضف إلى ذلك أبحاث الجغرافيين المغاربة مثل عبد اللطيف بنشريفة الذي اهتم بالجغرافيا الزراعية حول(منطقة سوس، 1980)، ومصطفى عياد الذي درس أرياف (هضبة الجديدة،1982).

مارتيني بالأطلس الصغير،1991)، وعمار حمداش(منطقة سيدي يحيى الغرب، 1995).

ويلاحظ المتتبع للإنتاج الاسطوغرافي حول القبيلة المغربية في العقود الأخيرة، توجه منحى البحث القروي نحو التوجه الأنتروبولوجي، الذي غلبت عليه النفحة الانجلوساكسونية، ونستحضر ضمن هذا السياق، دراسة بيرنار هوفمان (بنيات المجتمع القروي التقليدي، 1967)، ودراسة ارنست كلنير حول (صلحاء الأطلس، 1974) ودراسة أمال رصام فينوغرادوف حول (قبيلة أيت نظير بجبال الأطلس المتوسط، 1974)، وإلين تيتوس هوفير حول (قبيلة ,,,,,,, قبل الغزو الفرنسي، 1978) ورايمون جاموس (البنيات الاجتماعية في جبال الريف، 1980) ودافييد هارت حول (قبائل أيت عطا بالجنوب الشرقي، 1980)، ودافييد سيدون (الفلاحون المغاربة، 1981). وفي سياق دائما هذا الاتجاه، نسجل حضور متزايد لباحثين مغاربة منذ الثمانينات من القرن الماضي، نخص بالذكر، محمد السيوتي حول (قبيلة بني درار بالمغرب الشرقي، 1982)، ورحمة بورقية (الدولة والقبائل في أزمور، 1984)، والمختار الهراس (الهياكل القبلية شمال غرب المغرب،1984)، وحسن رشيق (قبائل أيت ميزان بالأطلس الكبير،1986)، ونرجس العلوي (قبيلة إداو مارتيني بالأطلس الصغير،1991)، وعمار حمداش(منطقة سيدي يحيى الغرب، 1995).

لقد تميزت هذه الدراسات السوسيولوجية بعمقها التاريخي، ومساءلتها للماضي القبلي انطلاقا من أسئلة الحاضر، وهو ما عبر عنه السوسيولوجي الفرنسي جاك بيرك في كتابه "دراسات في التاريخ القروي المغاربي"، 1938".

والواقع،لم يقتحم مختصو الزمن هذا النوع من الأبحاث إلا بعد التخلص من مرحلة التشنج المعرفي والسجال التاريخي التي لازمت الكتابة التاريخية غداة الاستقلال مع جرمان عياش، وأنصار التوجه الوضعاني بالمغرب، هذا الاقتحام أو "الفتح الجديد" مثله جيل السبعينات مثل أحمد التوفيق في أطروحة "اينولتان" والعربي مزين في " تافيلالت".

لقد دشنت دراسة أحمد التوفيق حول قبائل اينولتان 1976م حقلا تاريخيا جديدا، كان حكرا فيما مضى على السوسيولوجيين والانتروبولوجيين، مستنعينا بعتاد أرشيفي محلي، وبأدوات منهجية جديدة أبرزت انفتاحه على مدرسة الحوليات الفرنسية، وبإشكالات مستمدة من حوار مباشر مع العلوم الاجتماعية، وهو توجه رسم لجيل الباحثين الشباب آفاقا واعدة للانخراط في تجربة الكتابة المونوغرافية، بعد أن تأكدت منهجيا صعوبة كتابة التاريخ التركيبي.

تميزت جدة أحمد التوفيق في دراسة قبائل "اينولتان" في التخلص من هواجس الكتابة الوطنية المنخرطة في السجال المعرفي مع الاسطوغرافيا الأجنبية، ومن جاذبية وبؤس الوثيقة المخزنية، ومحاولة إقحام كتب النوازل في كتابة التاريخ الاجتماعي للقبيلة المغربية.

لقد تميزت الأعمال المبكرة للبحث التاريخي المونوغرافي بعدة خصائص أساسية:

أولا: الصرامة الوضعانية في التعامل مع الوثيقة المكتوبة المحلية، وإخضاعها للتمحيص والمساءلة.

ثانيا: اقتحام موضوعات جديدة على المؤرخ كانت حكرا على الجغرافيين والانتربولوجيين وعلماء الاجتماع، ويتعلق الأمر بتحليل المشاهد الزراعية، تاريخ التقنيات، أنماط السكن، أنماط الإنتاج، التركيبات الاجتماعية، أشكال السلطة.

ثالثا: فتح التاريخ على محاورة علم الاجتماع، كما يظهر من داخل الأطروحة الذي دخل في حوار مباشر مع روبير مونتاني، جاك بيرك، ارنست كلنير وغيرهم.

في سياق هذا النموذج المونوغرافي الذي خطه أحمد التوفيق حول قبائل "اينولتان" سقطت باقي المونوغرافيات التاريخية في مسألة الاستسهال المنهجي، والاستنساخ المعرفي الذي وقع فيه عديد من الباحثين، تحت تأثير الطلب الجامعي في سياق برنامج "تكوين المكونين" على أساتذة جدد يشغرون مناصب تركها الجيل الأول، وهو ما أسهم في نقل البحث التاريخي المونوغرافي نحو مرحلة السرعة القصوى، لإنتاج أطروحات جامعية استجابة للطلب الجامعي.

أفرزت هذه الدراسات المونوغرافية التي تناسلت من رحم أطروحة "اينولتان" لأحمد التوفيق، ول"تافيلالت" لمحمد مزين، ول" ايناون" لعبد الرحمان المودن، عن ولادة تصور عام يرمي إلى دراسة مجموع البنيات الاقتصادية والاجتماعية التي تهم البوادي المغربية قبل الاستعمار، في سياق التركيب، ومن بين هذه الإسهامات تلك التي أنجزها المؤرخ الفرنسي نيكولا مشيل حول "اقتصاد المعاشات"، 1997م،عبر من خلالها عن رؤية شمولية لمحاولة الإحاطة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للبوادي المغربية.

حصيلة وآفاق:

لقد حاولنا من خلال هذه المساهمة تتبع واستقراء المسار الاسطوغرافي الذي قطعته الأبحاث المهتمة بتحليل البادية المغربية، منذ بداياته الجنينية مع أبحاث البعثة العلمية، من خلال تبلور ثلاثة خطابات رئيسية:(الخطاب السوسيولوجي الكولونيالي- الخطاب المونوغرافي التاريخي- الخطاب التركيبي)، وهو وقوف يروم إلى فتح مداخل جديدة للكتابة التاريخية، وإعادة طرح قضايا تاريخية، بنفس جديد، ومساءلتها على ضوء التراكم الاسطوغرافي الحاصل، ومحاولة هدم الكرونوزوفيات التاريخية التي أصبحت تخيم بين الحين والآخر على البحث التاريخي، وتجعلنا نسلم بواقع "التراكم الهش" وب "بداية التراجع" عن مكتسبات ناضل من أجلها باحثون دفاعا عن التاريخ، ومعارك التاريخ.

من قضايا التاريخ الإجتماعي

دور الأعراف القبلية في تنظيم حياة القبائل بمجال البيضان

حمادي امهيمار

باحث في تاريخ الجنوب المغربي

يشكل المجال الترابي الدعامة الأساسية التي يقوم عليها كل مكون قبلي، نظرا لكونه مجالا لانتجاعها ومصدرا للتزود بالكلأ لماشيتها التي تشكل الرأس المادي لقبائل الصحراء ومجالها الذي يتميز بموقعه والذي نسجت حوله حكايات وأساطير شعبية جعلته في هالة من القداسة لدى العامة من قبائل مجتمع الصحراء، ولذلك فهو يحكي تاريخه ويعبر عن مدى تقدمه ورقيه باعتباره تجسيدا لعقلانية القبيلة التي كانت لها السيادة آنذاك، عقلانية الوحدة والتعاون، هذا التنظيم للمجال بمكوناته العامة والخاصة ساهم في بلورة وعي جماعي باستغلاله والحفاظ عليه خاصة في ظرفية تاريخية غابت عنها السلطة السياسية، والذي واكبه حضور مكثف لهذه القبائل عبر امتدادها التاريخي على الأقل منذ ظهورها على ساحة الأحداث محتلة المجال الذي طبعته باسمها وبتقاليدها النابعة من عمق البداوة وشظف العيش، ثم نجد طبيعة علاقاتها مع القبائل المجاورة التي تراوحت بين

"المهادنة" و"المواجهة" حسب الظرفية السياسية وشروطها من جهة والأهداف الإستراتيجية التي عرفتها القبيلة وكبارها من جهة ثانية، وهي علاقات لم تخرج عن القاعدة العامة التي بموجبها كانت تتعامل القبائل مع نظيرتها في مجال بلاد البيضان، وفي هذا الإطار نتحدث عن التنظيم المعقلن لهذا المجال لمستوطنيه، عبر مجموعة من القوانين والأعراف التي توضح وتبين قيم الإنسان وامتداده في مجاله.

وفي هذا الإطار شكلت الصحراء ذلك الفضاء الواسع الذي يمتد ما بين وادي الذهب وواد نون جزءا من مجال أوسع عرف باسم مجال البيضان أو بلاد البيضان الذي ترتبط به قبائل تكنة ارتباطا وثيقا نظرا لما يوفره المجال من فضاءات للرعي والتنقل والانتجاع، هذا الفضاء ساهم في فترة من فترات التاريخ في ظهور حركات سياسية كالحركة المرابطية؛ والتي حملت مشروعا سياسيا وحدويا نظرا للتجزئة السياسية التي عرفتها المنطقة، وذلك راجع إلى العصبيات القبلية لأن القبائل بأعرافها وقوانينها ترفض أي تسلط على حساب حريتها السياسية والاقتصادية، وقد احتكمت معظم القبائل الصحراوية في تنظيم علاقاتها الداخلية وتوتراتها وتناقضاتها إلى منظومة عرفية متكاملة تستمد فاعليتها من قوة الجماعة وأفرادها الممثلين لمختلف التفريعات القبلية، فمسألة تنفيذ هذه الأعراف في مستوياتها الجنائية والمدنية وشتى أدوارها القضائية والتنفيذية والتشريعية ساهم في استقرار القبائل وإقرار الأمن بحل النزاعات واستيعاب مسبباتها بما يوفر الشرط اللازم والأساسي للتعايش والتجمع في شكل منظومة قبلية متكاملة بمظهر الوحدة أمام المحيط القبلي، بالرغم من الاختلافات الجزائية الناتجة عن خصوصية كل منطقة.

-أهمية القوانين العرفية في حياة القبائل

تكتسي القوانين العرفية العرف أهمية خاصة في حياة المجتمعات القبلية، فهي لم تكن تقتصر على مجال جغرافي أو اثني حتى وإن كان كل مجال له علاقاته الاجتماعية المميزة له، ومما يبرهن على ذلك التسميات المتعددة للعرف وتختلف هذه التسميات من شمال المغرب إلى جنوبه، ففي منطقة سوس يدعى العرف بالقانون أو الديوان أو الشرط [26] كما نجد تسمية "أزرف" في الوسط

[26] العثماني، امحمد، **ألواح جزولة والتشريع الإسلامي، دراسة لأعراف قبائل سوس في ضوء التشريع الإسلامي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط، 1425هـ/2004م، الطبعة الأولى، ص: 235.

والجنوب الشرقي الذي بواسطته تتم إدارة العلاقات بين الأفراد داخل القبيلة بكونه قانون مدني[27]، في حين يطلق على العرف في منطقة الأطلس الكبير وسجلماسة اسم "تعقدين" (ايت عطا)[28] وهي كلمة بالأمازيغية تفيد ما انعقد الناس عليه في أمر من أمور حياتهم، وتستعمل القبائل أسماء أخرى للعرف كتسمية اللوح[29]، على اعتبار أنه مجموعة من الأعراف والقوانين المكتوبة التي وضعتها هذه القبائل قصد تدبير شؤونها الداخلية والحفاظ على أمنها الخارجي.

وقد انتشرت ظاهرة الاحتكام من الألواح بين قبائل شمال إفريقيا، منذ عهد لا تسمح الوثائق بتحديد مدى قدمه وقد استمر العمل به في سوس وغيره إلى بداية القرن الحالي. ولعل اسمه وارد من كونه كتب قديما على ألواح من خشب قبل انتشار الورق[30] وذلك حسب ما ذهبت إليه دراسة امحمد العثماني الذي عثر على أقدم نص عرفي مكتوب في جنوب المغرب يعود إلى القرن الخامس عشر، مع أن العثماني لا ينفي إمكانية وجود عرف أقدم منه[31]، وقد استمر العمل به في سوس وغيره إلى بداية القرن.

والعرف بمختلف مرادفاته هو: "كل ما شاع بين الناس وتم التعارف عليه بينهم : "فهو تلك العادات التي تعكس أفكار المجتمع عن الصواب والخطأ ويواجه الأفراد الذين ينتهكون عرف المجتمع الذين ينتمون إليه معارضة وعقابا شديدين، وعادة ما يوافق العرف التشريعات السماوية في أي دين حقا كالإسلام وديانات أهل الكتاب الأصلية غير المحرفة إلا ما رفضته هذه الديانات من أعراف معينة وبطلتها"[32] ويعتقد البعض أن إصلاح مجتمعهم يعتمد على تقوية عرفه، وقد تضاربت آراء الفقهاء حول مشروعية العرف ومدى مطابقته للشرع، وما اختلاف أجوبة الفقهاء حول هذا الموضوع إلا دليل على استعصاء الأمر. ويعتبر فقهاء الحواضر والمدن أشد معارضة للعرف، ومن

---

[27] AOHCHAR ; Amina ; « COLONISATION ET CAMPAGNE BERBERE AU MAROC » ; ED: 2 ; Afrique Orient CASABLANCA2005 ; PP: 44-45.

[28] Mezzine, Larbi; « Le Tafilalt,Contribution à l'histoire du Maroc au 17 et 18 siécles » ; publication de la Faculté des Lettres Rabat 1987, Page :93

29 آفا، عمر، **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (1822-1906)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بآكادير أطاريح ورسائل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988، الطبعة الأولى، ص: 415-416.

30 المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[31] العثماني، امحمد، مرجع سابق، ص: 105.

[32] محمد المامي، مصدر سابق، 31-32.

بين القائلين بجواز العرف **أحمد بابا التنبكتي**: " أعلم أن الموضع الذي لا سلطان فيه ولا يلحقه حكم السلطان، إن اجتمع جماعة المسلمين على إقامة أحكام للشرع على الوجه المشروع، فإن حكمهم يقوم مقام السلطان والقاضي، حيث لا سلطان ولا قاضي"[33].

وكيفما كان الحال فالأعراف وليدة البيئة التي تطبق داخلها وتساهم في تكوينها على مر السنين العادات الموروثة ونسبة التدين والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تتداخل في تلك البيئة، فأحكام العرف شكلت إحدى المصادر العامة التي تثري التشريع الإسلامي والوضعي تيسيرا لاستمرار معاملات الناس المسترسلة على ما هو مألوف ومستحسن[34]، فالقواعد العرفية من أكثر القواعد رسوخا وتأثيرا في بنية المجتمعات القبلية. كما أنها في نفس الوقت مؤسسة تنظيمية تعبر عن أعلى مستويات الوعي والحذر والمسؤولية[35].

ولم يكن من الصعب تبرير المكانة التي تحتلها الأعراف في المجتمع المغربي إلى جانب النصوص القانونية الوضعية، مادام من المسلم به أن بنية القانون المغربي، بالمفهوم العام لمصطلح القانون، تتكون في أصلها من أنساق ثلاثة من الضوابط هي: الأحكام الشرعية، والقواعد العرفية، والنصوص التشريعية[36]، بحيث كان العرف على الدوام يشكل مصدرا من المصادر القانونية التي تنظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والقضائية ويحدد الجرائم والعقوبات كما يهدف إلى حل النزاعات القائمة أو المحتمل قيامها سواء تعلق الأمر بالجانب الجنائي الإجرامي أو جانب العرض أو حماية الملك الخاص والعام[37] هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فله صلة وثيقة بالشريعة وبأصول الفقه، وبهذا يكون الداعي من سن القوانين العرفية هو إثبات النظام ومحاربة الفوضى من خلال خلق ما يشبه القانون الوضعي الذي يتكيف مع الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لأن

---

[33] ورد بنص جواب التنبكتي في كتاب علي صدقي ازيكو، تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة، مركز طارق بن زياد، الرباط، 2002، ص: 168، ينظر كذلك أجوبة الفقهاء الآخرين ص: 158-198. عن رحال بوبريك، دراسات صحروية، مرجع سابق، ص: 132.

[34] إد الفقيه، أحمد، نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي-شرعا وعرفا وتشريعا-، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، 2002، الطبعة 1، ص: 132.

[35] احدى، أمحمد، أعراف الجنوب المغربي، الطبعة الثانية 2012، أكادير، ص: 16.

[36] إد الفقيه أحمد، مرجع سابق، ص: 130.

[37] بوبيرك، رحال، "زمن القبيلة" السلطة وتدبير العنف في المجتمع الصحراوي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأول،2012 ، ص: 70.

العرف ليس قضاء وفضٌ للنزاعات فحسب، الأمر الذي يعطيه طابعه الجنائي البسيط بل هو تعبير دقيق ومطابق لإنسية الجماعة انطلاقا من التصور العام للكون حتى في أبسط المعاملات اليومية الفجة[38].

-دور الاعراف القبلية في تنظيم حياة القبائل بمجال البيضان

تساهم القوانين العرفية في تنظيم المجال القبلي، وتعتبر الصحراء نموذجا للتعايش والتكامل بين البنيات الإثنية المختلفة من حيث الأصول ومن حيث نمط العيش لذلك جاءت القوانين العرفية من أجل الحفاظ على النظام ومحاربة الفوضى، فالقبيلة لم يكن يحكمها قانون الغاب ولا تعيش في اللانظام خاصة حينما نتحدث عن غياب سلطة مركزية مباشرة[39].

وبكل تأكيد لا يوجد أي مجتمع قبلي خال من القلاقل والصراعات سواء الخارجية أو الداخلية فكان لزاما من وضع قوانين عرفية تسهر القبيلة على سنها في سبيل فرض الأمن والعدل والأخذ بزمام الأمور، وهذا ما ينطبق أساسا على قبائل البيضان التي عمد أهلها إلى خلق نوع من النظام التحكيمي الذي يستمد مشروعيته وأسسه من وجود القوانين العرفية والشرعية، حيث نراهم أوجدوا هيئتين للقضاء: هيئة **آيت لربعين**[40] ثم هيئة **العلماء والفقهاء**، وبهذا أضحى التنظيم العرفي وسيلة ضرورية وآلية من آليات التدبير الجماعي للعنف بين المكونات القبلية بمجال الصحراء حتى لا تعرف هذه البنيات الاجتماعية نوعا من اللاتكافؤ في امتلاك وسائل العيش من أماكن الرعي والإنتجاع للماشية، وكذا المكانة السياسية داخل مجال كل قبيلة على حدة.

1: التنظيم الداخلي

إن التنظيم الداخلي للقبيلة في الصحراء شأن غير معلوم أو غير مدرك بالشكل المتعارف عليه، لاعتبار أساسي هو بعد القبائل الصحراوية عن المركز، ولما لهذا البعد من انعكاس على عدة مستويات تنظيمية،[41] فالتسيير الداخلي لقبائل الصحراء كان من اختصاص مجلس أيت لربعين

---

[38] احدى، امحمد، دراسات في تاريخ المغرب العميق، أكادير، 2012، الطبعة الأولى، ص: 22.

[39] بوبريك ، رحال، دراسات صحراوية المجتمع والسلطة والدين دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الثانية2008 ، ص: 141.

[40] تتردد بجنوب المغرب عدة تسميات مرادفة لأيت لربعين منها: إنفلاس– المقدمون– الشيوخ–النقباء– اجماعة.

[41] الشمسدي، عبداتي، آليات بناء القبيلة في الصحراء الأطلنتية، قراءة نظرية، ومراجعة في الكتابات الاستعمارية، ضمن كتاب البنيات الاجتماعية والاقتصادية في الصحراء، عبد الكريم مدون، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2011، ص: 68.

حيث أن المهام التي كان يشرف عليها تتمثل أساسا قي الحفاظ على الأمن إذ يقوم بحراسة القطيع والمنتجعات التي ترتادها الإبل والأغنام، وفي نفس الوقت يعمل على حل جميع النزاعات والخصومات التي تنشب بين الأفراد، في"خيمة الصلاح"[42]، وذلك تبعا لنوعية وطبيعة المشاكل المطروحة معتمدا في حلها على رزنامة من القوانين والأعراف المتفق عليها دفعا لكل خلاف يحتمل أن يقع بين أعضاء المجلس، فالأوفاق العرفية تتضمن القضايا التي يمكن أن تعرض على أنظارهم بما فيها الجنايات والجنح والمخالفات .وسعيا الى تبسيط الفصال فإن هذه الأوفاق العرفية تستعرض حالات كل نازلة بتفصيل شديد بدءا من الحيثيات وانتهاءا بإبراز وجه الحكم،[43] وحتى نلمس دور الجماعة عن قرب نرى أنه من اللازم سرد بعض الأحكام المتعلقة بها وبمحيطها والتي تشتمل قضايا شتى: كالقتل والسرقة وبعض النوازل الأخرى.

2: العقوبات المالية لدى قبائل البيضان

تتميز الاعراف القبلية بمجال البيضان بمرونة كبيرة وتحاول أن تسد جميع الثغرات وتغطي كل أنواع المخالفات، وبالتالي فهي تتمحور حول قضية جوهرية اعتبرت كوحدة قياس أساسٍ بالنسبة إلى أداء الجزاءات والعقوبات، ونعني بها قضية الدية التي تعد أقصى جزاء يمكن أن يلحق بالفرد أو المجموعة، حيث ورد في بعض الأعراف القبلية لمجتمع البيضان جملة من القضايا التي تُجرم الفرد في إطار مجال الضرب والجرح ومن ذلك أمثلة النصوص العرفية لأيتوسى و الركيبات وايت لحسن وأزركيين.[44]

وكما أسلفنا الذكر شكل العرف بما فيه العقوبات المالية أساس السلم الاجتماعي لمجتمع البيضان، هذا لأن هذه الأخيرة اهتمت بالإنسان وجعلته الرأسمال المادي والمعنوي خاصة في مجتمع يعتمد في اقتصاده على المجهود العضلي أكثر من أي شيء آخر.

بالإضافة إلى هذه العقوبات المالية هناك أخرى مادية، وتتعلق بالسرقات على وجه التحديد، والتي تختلف من قبيلة لأخرى وعقوبتها مرتبطة بنوعية الشيء المسروق فمثلا نجد في

---

[42] خيمة الصلاح: خيمة خاصة بالإجتماعات على غرار مجلس البرلمان يجتمع أفرادها كلما دعت الضرورة، وتتم مناقشة جل القضايا المتعلقة بالماشية والمجال الترابي وقض النزاعات التي تنشب بين الأفراد وإصلاحها.

[43] المحمدي، علي، السلطة والمجتمع في المغرب–نموذج ايت بعمران، الدار البيضاء 1989، ص: 56.

[44] ينظر كتاب "دراسات صحراوية"، لخوليو كارو بروخا ، ترجمة احمد صابر، دار ابي رقراق للطباعة والنشر –الرباط، 2015، ص: 349–356

بعض النصوص العرفية لقبيلة **ايت لحسن** "أن يعاقب السارق بتقديم ذبيحة مع إرجاع الشيء المسروق[45]"، في حين أن أعراف **الرقيبات** تتضمن "أن سرقة شيء معين يعاقب عنها أداء مبلغ قيمته تعادل أربعة أضعاف قيمة الشيء المسروق[46]".

وهكذا اهتمت الأعراف القبيلة بمعالجة المشاكل التنظيمية للقبلية، فقد شكل الجانب الاجتماعي التنظيمي حصة الأسد في الديوان وكذلك في مجمل الاتفاقيات، فقد عالجت مشاكل السرقة والقتل والضرب واستباحة أموال الناس على وجه الخديعة والمكر، بالإضافة إلى الخروج عن قرارات الجماعة والتماطل في الواجبات وهي كلها أمور تدخل ضمن الإطار التنظيمي الاجتماعي،.كما حظي الجانب الأخلاقي بنصيبه، فقد حظيت المرأة البيضانية بحظوة كبيرة وتمتعت بحقها في الميراث وحرية التصرف فيه بالمقابل بل ظلت المرأة في المجتمع الصحراوي ذلك العنصر الأكثر إثارة للمشاكل الأخلاقية، في حين شكل الرجال في المجتمع الصحراوي ذلك العنصر الذي قد يلحق الإساءة بالقبيلة لذلك نجد بعض الاحكام الصادرة في حقهما وفي هذا الصدد نورد بعض الأحكام:

1- يعاقب على اغتصاب القاصرة بدفع حق المرأة.

2- وجميع امرأة ظهر فيها حمل و لم يكن لها زوج فإن أهلها يعطون مائة ريالات وتحرق خيمتها وتخرج من وسط القبيلة لا تسكن فيها[47].

3-كل من قام بالمساس بحزمة زوجة الغير عن قصد، يعاقب بدفع حق الزوجة[48].

4- في كل النزاعات المتعلقة بالنساء، يتم اللجوء إلى خمسة شهود[49]

هكذا نلاحظ أن الأمور الأخلاقية ارتبطت بالمرأة على وجه التحديد، و لم يتغاضى عنها قانون القبيلة.

كما ظل الجانب النفسي ومسألة ترويع الناس وما يرتبط بذلك حاضرا بين ثنايا الاتفاقيات وكذا أعراف القبائل البيضانية، حتى أنهم رفعوه من أجل اتقائه إلى درجة القتل، ذلك ما نلاحظه

---

[45] – المرجع نفسه، ص: **349**

[46] – المرجع نفسه، ص:**355**

[47] مخطوط قبيلة ديوان قبيلة أيتوسى ويتضمن بعض العقوبات التي حددتها قبيلة ايتوسى؛ فيما يخص موضوع الحمل الناتج خارج مؤسسة الزواج.

[48] **دراسات صحراوية**، لخوليو باروخا، مرجع سابق، ص:355

[49] نفس المرجع، ص:354

في حالة من حاول الضرب والجرح بواسطة السلاح فهناك بعض الأحكام التي تناولتها الاوفاق العرفية وهي:

1- يعاقب على الجرح بالسلاح الابيض بتعركيبة[50] إضافة إلى مابين أربعين ومائة ريال [51].

2- يعاقب عن التهديد بالسلاح الابيض بدفع قطعة واحدة من القماش[52].

3- يعاقب على الجرح بواسطة السلاح الابيض بتعركيبة وخمسين ريالا.[53]

4- يعاقب على التهديد بالسلاح الناري في وضعية الجاهزية للإطلاق النار بدفع قطعة واحدة من القماش[54].

هذه كلها أحكام تتعلق بالجانب النفسي، وغالبا ما نجد مسألة الذبيحة حاضرة في مثل هذه المسائل، وذلك لجبر الأضرار النفسية كما أشرنا سابقا، وهناك ملاحظة لا يجب القفز عليها، وهي أن الذبيحة التي تأتي في هذه الأمور يتم ذبحها واشتراك لحمها بين الجاني والمجني عليه من أجل محو كل ما من شأنه أن يعلق بالنفس من ضغائن، قد تتبلور في النهاية لتصل إلى درجة الثأر، حيث يمكن أن تكون هذه الذبيحة لا تتماشى والضرر اللاحق بالمعتدي عليه، وتبقى عندهم هذه العطية إلى أن تموت ويبقى الحقد كامنا في النفوس، ذلك الحقد الذي لا يُزيله سوى التواصل والجلوس على مائدة واحدة واشتراك الأكل خاصة في رحاب الأولياء الصالحين، لأن هذا الاشتراك يكون له مفعول عكسي على العلاقات بين الناس.

---

[50] تعني باللغة العربية فرد من الإبل وهي الهدايا التي تقدم بعد انتهاء الحرب، دلالة على الاستسلام، وطلب العفو، حيث تقدم أفراد من البقر والجمال تقطع عراقبها، رمز للخضوع. كما تقدم عند طلب الهدنة بين القبائل أو بين الأفراد، أفا عمر، **مسألة النقود**، مرجع سابق، ص397

[51] **"دراسات صحراوية"**، لخوليو كارو بروخا، مرجع سابق، ص353.

[52] **المرجع نفسه،ص: 356**

[53] **المرجع نفسه، ص: 351**

-ريـــال: لفظ اسباني (Réal) ومعناه ملكي، وقد استعمل في المغرب خاصة في القرن 19 ريـــال اسباني بأسماء متعددة مثل الريـــال الكبير والريـــال القديم، والريـــال ذو المدافع... ويساوي 5 بسيطات، كما استعمل الريـــال الفرنسي، ويسمى الريـــال الصغير، والريـــال الجديد، والريـــال 5 فرنكات. وقد أطلق الريـــال على قطعة عشرة دراهم التي ضربها مولاي الحسن بأوربا بعد 1881، وكانت تزن 29.116 غ مقابل 25 كرام التي تزنها قطعة الريـــال الفرنسية والاسبانية بعد دخول هذه الأخيرة في النظام اللاتيني 1865، واستعملت كلمة الريـــال الحسني والعزيزي والحفيظي... ومازال الريـــال إلى اليوم يطلق على قطعة 5 سنتيمات، آفا عمر، مرجع سابق، 4 404.

[54] **دراسات صحراوية، لخوليو بروخا، ص:354**

واللافت للانتباه أن التشريع العرفي عند مجتمع البيضان حاول التعامل مع الدية بنوع من الصرامة والمرونة في نفس الوقت وخاصة فيما يتعلق بموضوع القتل عمداً أو خطأً، الذي لم يكن له أي مقابل سوى الدية، إذ لاوجود للمؤسسة السجنية فهناك الدية أو الثأر فقط، أما بالنسبة لقيمة الدية تختلف أحيانا وتستفيد منها أطراف ثلاثة: أهل الضحية ومؤسسة جماعة القبيلة والوسيط.

إلا إن القوانين العرفية والتقاليد البدوية في مجتمع الصحراء فرضت مسائل الحماية والحصانة والحقوق حفاظاً على الأرواح والأعراض والممتلكات وفي هذه التقاليد والقوانين من القوة والمناعة ما يجعلها قادرة على تحقيق هذه المسائل بكافة صورها وضمان تطبيقها حسب ما يقتضيه الحال.

والحقيقة أنه لا يوجد عشيرة أو مكون قبلي في البادية يعيش في معزل عن العشائر الأخرى وذلك ناتج عن تشابه ظروف المعيشة والبيئة والاحتكاك المستمر بين تلك العشائر والقبائل طلباً للماء والكلأ ولذلك فإن هناك تشابهاً كبيراً في العادات والتقاليد بين مختلف قبائل الصحراء شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فهناك ما يشبه الإجماع على تحديد الأفعال الفاضلة الشريفة كإكرام الضيف وحماية المستجير وكذلك هناك ما يشبه الإجماع على تحديد الأفعال القبيحة التي تجلب الخزي والعار كقضايا العرض وتقطيع الوجه وغيرها لذلك نجد وحدة في المبادئ القضائية العرفية عند البدو في الصحراء.[55]

مما يجدر التنبيه إليه أنه ينبثق عن هذه الأنظمة البدوية ما يسمى بالتنظيم العرفي، وقد عرفت بأنها قوانين نقلية محفوظة في البادية مرسومة لتأديب المجرمين المخالفين وتهذيب الأعراب يعرفها أرباب القضاء ويجرون عليها وبها يعوضون لصاحب الحق أو لأهله ما فقدوه من الشرف أو المال أو الحياة.وقد تستخدم كلمة حق بمعنى عقوبة،إن سيطرة القبائل على مناطقها سيطرة تامة خلال القرون العديدة قد أدى إلى إحداث مؤسسات تقوم بدور أساسي للحفاظ على المجتمع الصحراوي ووضع حد لما ينشأ في هذا المجتمع من مشاكل واضطرابات ومن هنا ظهر عندهم مصطلح (الوجه) وهو أمرٌ عام يعني العهد والميثاق والالتزام بالوفاء ويشمل الاحتكام إلى مبدأ "الدخالة" و"الخاوة" و"الجوار" و"لوجاه"[56]. وهو من أهم الإحداثات في تاريخ القضاء العرفي إذ يحرص على تطبيق

---

[55] **تشابه الاوفاق العرفية لدى قبائل الصحراء، ينظر كتاب " دراسات صحراوية"، لخوليو كارو بروخا ، ترجمة احمد صابر، دار أبي رقراق للطباعة والنشر –الرباط، 2015، ص: 349-355**

[56] ويعني هذا الأخير إدخال طرف آخر في موضوع ما يلتزم فيه بواجبات جديدة أهمها الحماية (الذبيحة).

العوايد في جميع المجالات وتحت كل الظروف كما أنه يكسب قرار القاضي القبلي عنصر الالزام من خلال العمل على تنفيذه. فصاحب الوجه أشبه ما يكون بالسلطة التنفيذية إذ يحرص بجميع تصرفاته على المحافظة على أمن المجتمع القبلي ودعم مؤسساته ورعاية أعرافه وتقاليده مهما كانت الشكوى بسيطة أو خطيرة حقوقية أم جزائية.

3: وسائل تطبيق الأعراف

العقوبة هي جزاء وضعته جماعة لآيت لربعين، وذلك بهدف الردع عن ارتكاب ما نهت عنه وترك ما أمرت به، فهي بذلك بمثابة جزاء مادي أو معنوي مفروض يجعل المكلف أو المخالف يحجم عن ارتكاب الجريمة.لذلك يمكن اعتبار العقوبات موانع قبل ارتكاب الجريمة وزواجر بعده.

ــ الوسائل المادية

كانت جماعة أيت لربعين عند مجتمع البيضان، تعتمد بشكل كبير على الضغط المادي كوسيلة لجعل أعراف المكونات القبلية نافذة المفعول، وحتى يتجلى ذلك بوضوح من خلال كثرة ذكر الأوفاق العرفية لكل من مصطلح الغرامة، الإنصاف، ثم العشاء.

أ- **الغرامة:** يقصد بها قدر من المال يطالب الجاني بتسديده تعويضا للمعتدى عليه، وقد كانت الجماعة تحرص على تحديد قدر الغرامة وشكلها بكيفية دقيقة، ففي حالة القتل كان الجاني يجبر على أداء قدر من الدية كتعويض مالي لأقارب الضحية، أما في حالة الضرب والجرح فقد كانت الأعراف تولي أهمية لتكاليف العلاج ولدرجة العجز الذي يلحق المصاب في تقديرها للتعويض المالي.

أ-الإنصاف: يقصد به من خلال الأوفاق العرفية ذعيرة نقدية كان يلزم بأدائها لأيت لربعين كل من خرق عرفا من أعراف القبيلة بحيث كان يتم تحديد قدر الإنصاف تبعا لدرجة خطورة الجريمة.

ب-العشاء: معناه في الأوفاق العرفية ذعيرة بالمال العين، وقد كانت تتمثل بالأساس في تقديم الجاني وجبة عشاء لآيت لربعين، كان تحديد نوعها ومقاديرها يتم طبقا لأعراف البيضانية.

من هذا المنطلق يمكن أن نشير إلى أن العقوبة بالمال تعتبر من المسائل المهمة التي لاينبغي جهلها للمشتغل بالفقه وأبحاثه والمتعاطي للقضاء وأحداثه[57]، خصوصا في هذا العصر الذي بنيت

[57] العثماني، المحمد، مرجع سابق، ص: 150-152.

على الإكراه البدني والعقوبة المالية، هذه الأخيرة ماهي في الحقيقة إلا تغريم الجاني شيئا من ماله يأخذه منه من له سطوة حسب ما ظهر له من قلة أو كثرة، في حين تعتبر العقوبة في المال معاقبة الجاني في ماله بإتلافه عليه كتخريب داره أو إحراق ثيابه أو إراقة مواده المغشوشة، وما إلى ذلك.

وقد وقع الخلاف في جواز العقوبة بالمال أو في المال منذ مئات السنين افترق العلماء إلى فريقين: فريق يقر بجوازها على الإطلاق ونذكر على سبيل المثال لا الحصر الشيخ البرزولي ومؤيديه زاعمين أن السنة قد وردت بذلك، وبقي حكمها مستمرا في عصر الصحابة ومن بعدهم، أما الفريق الثاني يمنعها منعا باتا ومنه أبو العباس أحمد الشماع ومريديه ودليلهم في ذلك أن العقوبة المالية كانت في صدر الإسلام لكن بعد ذلك تم منعها.

ـــ الوسائل المعنوية

إذا ألقينا نظرة على الأعراف القبلية بمجال البيضان نلاحظ من خلالها أن الضغط المادي لم يكن هو الوسيلة الوحيدة لفرض احترام عناصر القبيلة لما كانت تفرزه جماعتهم من أعراف، وإنما كان مرفوقا بضغط معنوي يتمثل أساسا في اليمين الذي كانت هيئة أيت لربعين توليه أهمية خاصة كوسيلة من وسائل إقامة على المتهم، باعتبارها الهيئة المشروعة داخل المكون القبلي ونميز داخل الأوفاق العرفية لمجتمع البيضان بين اليمين الفردي الذي كان يؤديه أحد أطراف النزاع أو من يكون عرضة لتهمة ما، وبين اليمين الجماعية التي كان يؤديها المتهم بمعية عدد معلوم من أقاربه حيث أن المتهم لما كان ينكر بتوجه اليمين عليه وحده يلزم بتزكية أقاربه وجيرانه إياه الذين يحتمي بهم ويحتمون به، ويعرفهم ويعرفونه بالمخالطة والمجاورة وبالإطلاع على سيرته وأخلاقه.

ونظرا لخطورة الشهادة كركن من أركان تأسيس الحكم كانت هيئة أيت لربعين تتشدد في معاقبة كل من يدلي بشهادة مزورة أو يتراجع بدون مبرر عن شهادة صدرت عنه، بحيث أن الشاهد المعروف بتزوير الشهادة كانت الجماعة تضعه في عداد القاصرين الذين لا تقبل شهادتهم إلا في حالات استثنائية مثل عدم وجود شخص غيره وغيرها من الحالات، فهو بذلك يفقد امتيازا من الامتيازات التي كانت مخولة للرجل الحر ويترل إلى مصاف المرأة والعبد كما تشترط الجماعة في الشخص المخالف أن يكون رجلا بالغا مسلما، والمرأة لا تحلف إلا إذا كانت المدعى عليها

لكن والحالة التي نحن بصدد البحث فيها، حيث لا يوجد حاكم ولا سلطان يطاع، ليقف بنفسه على تطبيق الأحكام ويسهر على إقامة الحدود، سوف لن يكون هناك أبسط تطبيق لهذه

الحدود، ذلك ما استدعى من أهل الصحراء أن ينتدبوا بينهم جماعة، تقوم فيهم مقام السلطان، وتأتي بما لم يأت به الناس أفرادا، لكون حالة السيبة تبدي الفوارق من الشرف والجاه والمال، ويصبح على إثرها البلد كمن يعيش في غابة يأكل قويها ضعيفها، ويغلب على أهلها سفك الدماء وإتلاف الأموال، وإضاعة السنن فما بالك بالحدود، وقد تعرض لهذا العديد من الفقهاء والنوازليين، ومن بينهم أبو العباس البرزلي في نوازله ثم ابن حم الله التشيتي، وكلهم علماء عاينوا الحالة عن قرب هكذا يقول في هذه الحالة صاحب كتاب البادية "وأما عدم الإلمام وعدم التمكن من إقامة الحدود وإجراء الأحكام على أصلها فذلك والله أعلم أولى من الإهمال وعدم الزجر وترك القوي يأكل الضعيف فتعظم المفسدة في ذلك يغني فيه العيان عن البيان، بل إذا تعذرت الحدود و لم تبلغها الاستطاعة وكانت العقوبة المالية دافعة للمفسدة حاصلا بها الزجر، والاستطاعة تبلغها، تنزلت منزلة الحدود، وليس المراد أن الحد يسقط بذلك، ولكن ذلك غاية ما تصله الاستطاعة في الوقت دفعها للمفسدة ما أمكن"[58] هكذا يتضح مدى صعوبة الواقع الذي أفضى إلى اسقاط الحدود، ولن يكون هناك من هو أحرص من هذا الشيخ على تطبيق الأحكام، لكن الضرورة أباحت المحضور، وهي مسألة جرى بها العمل في الأقطار البعيدة عن أحكام السلطان، وقد نص العلماء على مجموعة من العلل المانعة من تطبيق أحكام القصاص في البلاد السائبة، فبالإضافة إلى عدم وجود الإمام هناك عامل آخر لا يقل خطورة، وهو عامل ناتج عن التعصب والعصبية، حيث أن عصبة القاتل لن يسلموه ليقام فيه الحد، بل سوف يقاتلون عنه، فيؤدي ذلك إلى مفسدة عظيمة، وسفك وهرج كثير[59]، وغير بعيد عن عصبة الجاني، ألزم ابن حمى الله التشيتي هؤلاء تسديد دية المجني عليه، إذا ما امتنع الجاني عن تسديدها موضحا أن ذلك "مما فيه مصلحتها ودرء المفسدة عنا" [60].

على طرف النقيض؛ هناك مجموعة من العلماء وقفوا موقف المعارض من استباحة الأحكام الشرعية، وتعطيلها اتقاء النتائج العكسية التي من الممكن أن تكون أعظم منه جرما وخطيئة،

---

[58] بن البخاري محمد المامي، كتاب البادية، تحقيق وتقديم ونشر زاوية الشيخ محمد المامي (1206-1282هـ) انواديبو، موريتانيا، الطبعة الأولى، 2009 ، ص: 103-104.

[59] ابن البراء، يحى، الفقه والمجتمع والسلطة، دراسة في النظر الإجتماعي والسياسي للفقيه الموريتاني بين أهل القبلة وأسرة أبناء القبيلة، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1993، ص: 76.

[60] المرجع نفسه، ص: 79.

موقفهم في ذلك "أن ما لا تصلحه السنة لا تصلحه البدعة" وأن "تحسين العقول هذا اعتزال"[61] هكذا نلاحظ مما لا يجعل مجالا للشك أن شيوخ البادية البيضانية الذين لم يجهدوا على النص، راعو أخف الضررين والأخذ بمقاصد الشريعة التي منها حفظ النفس، والمال والعقيدة، في فترة من الأحكام، وكانوا واعين بمدى أهمية العادة التي هي العرف، التي هي أساس السلم الاجتماعي، وكانت قبائل البيضان هي الأخرى تراعي أقوال العلماء في شان العقوبات المالية، وهذا ما نجده في أوفاقهم العرفية، حيث أحالوا على الفقهاء الذين أباحو هذه الأحكام وجعلوهم نبراسا يهتدى به في صياغة ديوانهم، إلى جانب بعد المخزن وعاصمته مما أدى لترك الأمر عند سكان الجنوب لقول العلماء أنتم أدرى بشؤون دنياكم على اعتبار أن الأوفاق العرفية أضحت أحد ضرورات الحياة التي لا يمكن الاستغناء عنها في المعاش اليومي وهو ما جعل الاعراف والعوائد تطبع الفتوى بنفس تجديدي بالنظر لتجدد تلك العادات، إطلاقا وتقييدا[62]

البيبلوغرافيا

المخطوطات:

مخطوط ديوان قبيلة ايتوسى .

المصادر والمراجع المعتمدة:

- العثماني، امحمد، **ألواح جزولة والتشريع الإسلامي، دراسة لأعراف قبائل سوس في ضوء التشريع الإسلامي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م
- لمحمدي، علي، **السلطة والمجتمع في المغرب-نموذج ايت بعمران**، الدار البيضاء 1989.
- ابن البراء، يحى، **الفقه والمجتمع والسلطة**، دراسة في النظر الإجتماعي والسياسي للفقيه الموريتاني بين أهل القبلة وأسرة أبناء القبيلة، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1993.
- آفا، عمر، **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (1822-1906)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بآكادير أطاريح ورسائل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988.

[61] المرجع نفسه، ص: 79-80.

[62] احمد الصديقي ، مقال ضمن كتاب "الفقه والتاريخ بسجلماسة"، تنسيق محمد البركة وأخرون ، منشورات الزمن مطبعة بني ازناسن سلا ، اكتوبر 2015 العدد65، ص: 120،

- إد الفقيه، أحمد، **نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي–شرعا وعرفا وتشريعا**–، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، 2002،
- احدى، امحمد، **أعراف الجنوب المغربي**، الطبعة الثانية 2012، أكادير
- علي صدقي ازيكو، **تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة**، مركز طارق بن زياد، الرباط، 2002،
- بوبريك، رحال، **دراسات صحراوية** المجتمع والسلطة والدين دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الثانية2008
- بوبيرك، رحال، **زمن القبيلة** السلطة وتدبير العنف في المجتمع الصحراوي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأول،2012
- خوليو كارو بروخا " **دراسات صحراوية**"، ترجمة احمد صابر، دار ابي رقراق للطباعة والنشر –الرباط، 2015،
- عبد الكريم مدون، **البنيات الاجتماعية والاقتصادية في الصحراء**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2011
- **"الفقه والتاريخ بسجلماسة"** -مباحث في تفاعلات المعاش والاقتصاد والثقافة من خلال فتاوى ابن هلال السجلماسي- تنسيق محمد البركة وسعيد بنحمادة ،منشورات الزمن، مطبعة بني ازناسن سلا ، اكتوبر 2015 العدد65
- AOHCHAR ; Amina ; « **COLONISATION ET CAMPAGNE BERBERE AU MAROC** » ; ED: 2 ; Afrique Orient CASABLANCA2005 .
- Mezzine, Larbi; « **Le Tafilalt,Contribution à l'histoire du Maroc au 17 et 18 siécles** » ; publication de la Faculté des Lettres Rabat 1987.

التاريخ القديم

التاريخ القديم لحضارة شعوب شمال إفريقيا
قراءة في الاسم والأصل

يونس كبزيز

باحث في تاريخ المغرب

يتساءل عبد الله العروي في كتابه مجمل تاريخ المغرب تاريخ المغرب القديم بقوله " كم لدينا من معلومات مؤكدة عن تاريخ المغرب بين القرن 5 قبل الميلاد والقرن الخامس ميلادي؟ "[i] طبعا هي معلومات قليلة جدا ونادرة ، فمواضيع التاريخ القديم تعد من أصعب المواضيع العلمية التي يمكن للمؤرخ أن يخوض فيها إذا ما قارناها مع مواضيع التاريخ الوسيط ومايلي هذا العصر من العصور والأزمنة ،فالصعوبة تكمن في الندرة وغلبة التأويل والاجتهاد ،خاصة في الأحداث الغير مؤكدة والغير مدعمة بحجج وأدلة علمية (اللقى الأثرية)، خاصة وأن التاريخ القديم لمختلف الحضارات تتخلله فترات غامضة وغير معروفة ، فلا يمكن الجزم بأن التاريخ القديم لأي حضارة من حضارات العالم معروف تمام المعرفة، ففي كل حضارة هناك تواريخ وفترات غامضة ومجهولة ، لازالت تنتظر الكشوفات والأبحاث الأثرية لتكشف عنها الحجاب وتزيل الغموض ، لذلك يعد علم الأركيولوجيا العمود الفقري للتاريخ القديم ، وذلك لسبب

بسيط هو أن التاريخ القديم لا يتوفر في غالبه على مصادر مكتوبة غير ما تكشف عنه الجداريات والخزفيات والمسكوكات وغيرها من اللقى الأثرية المادية .

إذن يمكن أن ننعت التاريخ القديم بأنه ذلك الحصن المنيع وتلك الأحجية التي يصعب حلها في ظل غياب معطيات علمية كافية ، هذه الوضعية يعاني منها تاريخ شعوب شمال إفريقيا ، حضارة الإنسان الأمازيغي ، تلك الحضارة التي تؤكد البحوث الأثرية على تقدمها جنبا إلى جنب مع باقي الحضارات المعروفة ، الفرعونية ،حضارات بلاد الرافدين، الحضارة الإغريقية والرومانية.

في هذا المقال سنحاول التطرق إلى المشاكل والعوائق التي تعترض دراسة التاريخ القديم لشعوب شمال إفريقيا ، كما سنحاول الحديث عن أصول حضارة هذه الشعوب وعن مظاهرها .

I.الإشكالية المصدرية :

يتميز التاريخ القديم عموما بإشكالية كبيرة تتجلى في ندرة المادة المصدرية بصفة عامة، و المادة المصدرية التي نتحدث عنها هنا هي المادة المصدرية المكتوبة خاصة على الحوامل الورقية ، ذلك أن التاريخ القديم يعتمد بشكل كبير على ما يكتشفه الأركيولوجيون من لقى أثرية مادية ، تتعدد و تتنوع من جداريات و مسكوكات و نقائش و خزفيات و غيرها من مخلفات الإنسان القديم ، و التي تمر بمراحل كثيرة من تصنيف و تحليل و تأويل لتصل إلينا في شكل مؤلفات يغلب عليها طابع الفرضيات ، وهي ميزة يتميز بها التاريخ القديم أكثر من غيره ، و تبقى كل تلك النتائج نسبية تبعا لنسبية العلم الذي تنتمي إليه ، ألا و هو علم التاريخ .

إن ما تحدثنا عنه أنفا يخص التاريخ القديم بصفة عامة ، فلا يمكن الجزم بأن هناك حقائق يقينية لتواريخ أي حضارة قديمة ، و نفس الشيء بالنسبة لحضارة شمال إفريقيا القديم ، بل يمكن القول بأن هذه الحضارة تعاني مع حضارات أخرى من هذه المشكلة بصفة خاصة بالمقارنة مع الحضارات المشهورة الفرعونية و حضارة بلاد الرافدين ، الرومانية ، الإغريقية ، حيث سلطت التنقيبات الآثرية الضوء عليها أكثر من غيرها ، و حتى عندما ينتدب بعض الباحثين أنفسهم خاصة الأجانب للحديث عن هذه الحضارات المنسية ، يتحدث و هو مؤطر بأديولوجته التي تنقص من مصداقية ما يقول لدينا .

1.المصادر الأجنبية

دائما ما نجد في أي تاريخ أنواع من المصادر ، مصادر رسمية و غير رسمية ، مصادر أجنبية وأخرى محلية ، و غالبا ما نجد التاريخ القديم يعاني من ندرة هذه الأنواع من المصادرة خصوصا التاريخ الذي نحن بصدد الحديث عنه ، حيث لا نجد الكثير من المصادر الأجنبية التي تحدثت عن هذه الحضارة (شمال إفريقيا) بإستثناء بعض الإشارات الواردة في الأدبيات الكلاسيكية اليونانية و الرومانية من أمثال مؤلف أب التاريخ، الإغريقي هيرودوت و بوليب و ساليست ، لكن ما يعاب على هذه المصادر أنها لا تؤرخ إلا عندما يتقاطع تاريخ شعوب شمال إفريقيا مع تاريخ بلدانهم خاصة أثناء الحروب ، و هو الشيء الذي أدى إلى وجود الكثير من الفترات الغامضة في تاريخ هذه الشعوب ، كما أنها لا تؤرخ إلا في لفترة زمنية لا تتجاوز القرن 6 أو 7 ق م ، ومما يعاب أيضا على هذه المصادر أن أصحابها ربما كتبوا هذه التواريخ بإيديولوجياتهم ، و هو ما يستوجب الحذر عند التعامل معها .

2.المصادر المحلية

رغم هذه الانتقادات الموجهة لهذا النوع من المصادر إلا أنها تبقى المصادر الوحيدة التي يمكننا الاعتماد عليها إلى جانب المصادر الأركيولوجيا في ظل غياب مصادر محلية كتبت عن حياة تلك المجتمعات القديمة ، و هي إشكالية تدفعنا لنتساءل هل بالفعل لم يوجد في تلك المجتمعات من يؤرخ لحياتها ؟ أم أنه تم إتلافها ؟ أم أن أيدي الباحثين و الآثريين لا تزال لم تصل إليها ؟

هذه تساؤلات مشروعة إذا ما علمنا أنه كانت لهذه الشعوب مقوماتها الحضارية الخاصة بها ، فقد توفرت على كتابة محلية خاصة ، يذهب بعض الباحثين أنها محلية المنشأ و الإبداع ، على عكس ما يذهب البعض الآخر بأنها كتابة هيروغليفية معدلة ، و غير ذلك من التأويلات المعتمدة على أدلة غير مقنعة ، من قبيل التشابه و تقارب هذه الشعوب . نقف هنا حتى نعود إلى هذه الإشكالية في محورها الخاص .

إذن خلاصة الأمر في إشكالية المادة المصدرية المحلية أنها شبه منعدمة ، و بالتالي تنقصنا الرواية المحلية ، التي كان من الممكن أن تفصح لنا على الكثير مما سكتت عنه المصادر الأجنبية.

3.اللقى الأثرية

لحسن الحظ أن العلم سمح لنا بمعرفة بعض الفترات الغامضة في التاريخ الطويل لهذه الشعوب ، من خلال علم الآثار الذي كشفت تنقيباته على أن حضارة شعوب شمال إفريقيا، كانت تسير في تطورها جنبا إلى جنب مع باقي الحضارات المعاصرة لها ، الفرعونية و حضارة ما بين النهرين ، عكس ما يذهب إليه الباحثون الشرقيون إلى أن هذه الشعوب ما هي إلا شعوب مقلدة لكل مظاهر الحضارات الشرقية ، لكن جاء علم الآثار ليفند هذه الأطاريح ، بل و ليبرز دور هذه الشعوب في نقل بعض مظاهر الحضارة إلى هذه الحضارات الشرقية ، كما أكدت بعض النقوش الكهفية بشمال إفريقيا بأن هذه الشعوب سبقت الحضارات المشرقية في العديد من المجالات و سيأتي الحديث عنها في محاور هذا المقال.

II.إشكالية التسمية (حضارة بربرية ، أمازيغية ، مغربية ، ليبية)

تعد إشكالية التسمية التي تطلق على شعوب شمال إفريقيا القديم ، من ضمن الإشكاليات المهمة لدينا ، حيث يعمد الكثير من الباحثين أو المؤرخين إلى إطلاق تسميات لا تتناسب في نظري مع العلمية التاريخية ، فهناك من يطلق على حضارة هذه الشعوب ، الحضارة المغربية القديمة ، و آخرون الحضارة البربرية ، و هي تسميات صحيحة لكن أجدها تجانب منهجية علم التاريخ الذي يوصي كل باحث فيه بأن يتموضع مع الموضوع في الزمان و المكان ، فلا يمكننا أن نطلق تسميات لا تتوافق مع الزمن المدروس ، كما فعل هؤلاء ، ولأن المنهجية التاريخية تفرض علينا تسمية الأماكن حتى نضع القارئ غير المتخصص في صورة واضحة عن الحضارة التي نتحدث عنها ، فكان اختيارنا لأسم دون آخر مرتكز على مجموعة من الأسباب ، فقد رفضنا تسميتها بالحضارة البربرية القديمة لأن كلمة البربرية كلمة لا أخلاقية أطلقها الرومان على كل الشعوب الأجنبية عن حضارتهم ، وإبان الاحتلال الروماني لشمال إفريقيا أطلقوها على السكان الأصليين و نعتوهم بالهمج (Barbari) لكونهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه الرومان من حضارة ورقي ازدهار، ومنه استعمل العرب كلمة برابر و برابرة[ii]، وحتى إذا تجاوزنا هذا السبب الأخلاقي فهناك سبب آخر نرفض لأجله إطلاق هذه التسمية على شعوب إفريقيا الشمالية ، و هو أن مصطلح البرابرة استعمل في الفترة الرومانية ، و هناك تسمية أخرى أقدم منها و هي التي سنعتمدها ، و سيأتي ذكرها لاحقا ، بالتالي لا يمكننا إطلاق تسمية أحدث على تاريخ أقدم من زمن تسميتها ، و هذه

هي الموضعة في الزمن التي نتحدث عنها . و لنفس الأسباب نرفض استعمال كلمة الحضارة الأمازيغية لأن هذا المصطلح أحدث ، و لم يظهر إلا حديثا عند الباحثين الذين يرجعون هذا الاسم إلى جد هذه الشعوب المسمى أمازيغ ، إذ لم يثبت في الأدبيات الكلاسيكية الإغريقية في القرن 5 ــ 6 ق م وجود لهذا الاسم .

أما المصطلح الثالث الذي يروق لبعض الباحثين استعماله هو تاريخ الحضارة المغربية القديمة ، و الذي نرفضه أيضا لأنه مصطلح حديث أيضا ، ظهر مع صدر الإسلام في منطقة شبه الجزيرة العربية التي حولها إلى مركز العالم ، و فكان المؤرخون و المشرقيون يطلقون على كل البلاد الكائنة غربي شبه الجزيرة العربية و مصر بجزيرة المغرب أو الغرب الإسلامي، و الذي قسم إلى 3 أقسام ، المغرب الأدنى (ليبيا حاليا) ، و ذلك لأن هذا القسم هو الأقرب و الأدنى من شبه الجزيرة العربية ، و القسم الثاني هو المغرب الأوسط (الجزائر الحالية و بعض من تونس) و ذلك لأنها تتوسط المغربين الأدنى و الأقصى ، هذا الأخير هو أقصى نقطة في الغرب الإسلامي ، و بالتالي لا يمكننا أن نطلق على حضارة شعوب شمال إفريقيا اسم الحضارة المغربية القديمة .

إن الاسم الذي نروم إطلاقه على حضارة شعوب إفريقيا الشمالية هي كلمة الحضارة الليبية ، على عدة اعتبارات منها أن أقدم الأدبيات الكلاسيكية تنعت شعوب شمال إفريقيا بهذا الاسم ، فقد ورد عند هيرودوت في تاريخه أكثر من مرة مصطلح ليبيا عند حديثه عن شعوب شمال إفريقيا، حيث كان الإغريق يطلقون اسم ليبيا على القسم الشمالي من إفريقيا الأهل بالسكان البيض ، و اسم الأحباش السود على سكان بلاد ما وراء الصحراء من إفريقيا[iii] كما ورد هذا المصطلح في شعر هوميروس إشارة إلى الشعوب الساكنة في الأراضي الممتدة من تخوم مصر القديمة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا [iv]. كما نعت حنون القرطاجي في رحلته الشهيرة إلى السواحل الإفريقية الغربية حيث يقول في نص الرحلة "عندما اجتزنا الأعمدة في رحلتنا و أبحرنا وراءها ليومين أنشأنا المدينة الأولى و أسميناها ثمياتريوم ... و من ثم تقدمنا غربا جئنا إلى سلويس[v] قنة [vi] ليبيا ... و يضيف ثم جئنا إلى نهر ليكسوس العظيم الذي يتدفق من ليبيا"[vii] و بالتالي حتمت علينا منهجية علم التاريخ الأخذ بهذا الاسم دون غيره.

ـــ إشكالية أصول الشعب أو الشعوب الليبية

إن الباحث في تاريخ أصول شعوب شمال إفريقيا يجد نفسه أمام ثلاث أنواع من الروايات ، هناك الرواية التقليدية ، و هي رواية الحوليات و المناقب و التراجم و الانساب ، وهذا النوع يحجب عنا أكثر مما يظهر ، لأن أصحابها كتبوها إما تزلفا من حكام عصرهم أو بضغط منهم أو لدفاعهم عن منظومة فكرية أو مذهبية أو سياسية تخدم مصالحهم ، وفي المقابل نجد الرواية الاستعمارية الكلونيالية والاستشراقية ، و هي روايات وضعت أيضا في ظروف سياسية و دولية خاصة ، قام أصحابه بتوظيف علم التاريخ لخدمة و الدفاع عن مصالح و إديولوجية السلطة الحاكمة بغية طمس هوية الشعوب المستعمرة و هذا ما نهجته مختلف الدول الاستعمارية ابتداء من القرن 19 و القرن 20 م ، أما الرواية الثالثة التي نحاول تقصيها و تتبعها فهي الرواية العلمية الموضوعية[viii] ، التي تخضع لمجموعة من الشروط العلمية الدقيقة .

تثير مسألة هوية الشعوب الليبية ، إشكالية كبيرة ، فقد تم التعامل مع تاريخ هذه الشعوب بانتقائية فتم حذف فترات و التركيز على فترات دون أخرى ، و قد ذهب الكثير من الباحثين في أصول هذه الشعوب إلى درجة انه تم نسب أصولهم لكل أنحاء العالم حيث كان من الصعب ان نجد بلدا أو منطقة لم يأتي منها الليبيون فنسبوا إلى الميديين والفرس[ix] ، ثم إلى منطقة الشرق الأوسط وبلاد كنعان ،و الهند اليمن وآسيا الصغرى ،و أوربّا وغيرها من الأقطار ، ذهبوا في كل الاتجاهات و الفرضيات ، لكنهم تجاوزوا إحدى الفرضيات التي تقول بأنّ الشعوب الليبية لم تأتي من أيّ منطقة وإنما هي أصيلة في المنطقة .

قبل أن نكشف عن الطرح الذي نتبناه من ضمن كل هذه النظريات سنعرض بشكل سريع مختلف هذه النظريات سنبدأ بالرواية الاستعمارية التي تقول بأن الشعوب الليبية أصلها أوروبية ، و ذلك تماشيا مع الأهداف الرامية إلى تسهيل عمليات الاحتلال و إدماج مستعمرات شمال إفريقيا بالدول الاستعمارية الأوروبية ، فأكدت على أن أصل هذه الشعوب أوروبي آري هاجروا من أوروبا و سبقوا العرب لهذه البلاد[x] ، وهو ما عملت عليه البعثات العلمية التي نشطت بمنطقة شمال إفريقيا منذ القرن 19 م.

أما الرواية التقليدية تؤكد على شرقية هذه الشعوب ، حيث هاجرت من الشرق الأوسط و بلاد اليمن و إستقرت بشمال إفريقيا ، فينسبونهم إلى الكنعانيين و العماليق كما ورد عند الطبري في قوله " و عمليق ، و هم عمالقة و منهم البربر ... ـــ و ينتهي بهم في شطر ـــ إلى سام بن نوح ـــ و في قسم آخر(صنهاجة) منهم إلى فريقش بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يعرب بن قحطان و هو بذلك ينسبهم إلى الأصل المشرقي العربي و هم بذلك شعوب سامية ، و في نفس الاتجاه ذهب ابن خلدون الذي قسم بدوره شعوب هذه المنطقة إلى قسمين برانس و بتر فأرجع الأولى(برانس) وقال بأن أصلهم من الشام و أما الثانية (البتر) فينسبهم إلى كنعان بن حام[xi] أي أنهم من الشعب الحامي

أما النظرية الثالثة التي تقول بأن هذه الشعوب ربما هي أصيلة في المنطقة و منها تفرعت الكثير من الشعوب الأخرى الشرقية و الغربية و التي نؤيدها و لنا حججنا بذلك و هي حجج مادية مرتبطة بعلم الآثار الذي كشف على أقدم بقايا بشرية في العالم و التي ترجع إلى 6 ملايين سنة ، هذه البقايا لم توجد في أوروبا و لا في أسيا و لا في غيرهما من المناطق و إنما وجدت في القارة الإفريقية ، و بالضبط في شمال صحراء التشاد[xii] ، و قد عثر بشمال إفريقيا على الأدوات التي استعملها هذا الإنسان ما يدل على أنه ربما عاش بهذه المنطقة ، كما أن كل الاكتشافات الأثرية ، تشير إلى أن القارة الإفريقية هي المهد الأول للإنسان .

III.مظاهر الحضارة الليبية القديمة

تتعدد مظاهر الحضارة الليبية القديمة ، سواء على مستوى اللغة أو الفن ، وحتى التأريخ ، والسياسة وغيرها من المظاهر الحضارية التي يجعلها بعض الباحثين معيارا لحضارة شعب دون آخر ، لقد راودت العدد من الباحثين أن شعب أو شعوب شمال إفريقيا القديمة لم تمتلك حضارة ، وإنما هي شعوب كانت بدائية وظلت كذلك إلى ان جاء الخلاص على يد الحضارات الأخرى الفرعونية ، اليونانية والفينيقية ثم الرومانية وأخيرا العربية . هي نظريات تستند إلى انعدام آثار مادية واضحة كأهرامات مصر و زقورات بابل و بلاد مابين النهرين و ساحات الأغورا الإغريقية ، و غير ذلك مما بهر أعين الباحثين وحذى بهم للتعصب لمظاهر هذه الحضارات التي لا ننكر أهميتها ، لكن لا يمكننا ان نقبل بهذه الأحكام و نحن نعلم أن التنقيبات الأثرية لا زلت لم تكشف لنا عن 80 % من تاريخ هذا الشعب الليبي مقارنة مع الاهتمام الكبير الذي أولوه لهذه الحضارات الرئيسية في

نظرهم ، و خير دليل على ذلك هو أهرامات الصين التي تفوق الحجم و الإبداع أهرامات مصر و زقورات بابل. من أجل ذلك انطلقنا من هذا التساؤل لنبحث في المراجع عن حضارة شعب ليبيا القديمة ، فوجدنا مبعض المعلومات التي أراحت شيئا ما فضولنا ، فوجدنا ان حضارة ليبيا القديمة لا تقل أهمية عن الحضارات الأخرى ، بل أنها أثرت فيها في العديد من المجالات ، و هذه معلومات إستقيناها من بعض المراجع التي إعتمدت على نتائج علم الآثار وعلى النقائش الكهفية التي خلفها الإنسان الليبي القديم ، ومن المظاهر الحضارية التي سنتحدث عنها ، هناك اللغة الليبية القديمة ، ثم الفن ، و التأريخ ، و سنختم بالمؤسسات الإجتماعية و السياسية التي عرفتها هذه الشعوب.

ـــ اللغة الليبية القديمة :

يمكننا أن نشبه الشعوب الليبية بالعائلة الكبيرة التي تتفرع إلى العديد من العائلات الصغيرة ، لذلك نجد بعض الباحثين يفرقون بين العائلة الواحدة و يجعل شعوب إفريقيا الشمالية مستقلة عن الشرقية ، لكن المتمعن في الخصائص الحضارية لمختلف هذه الشعوب التي يتمسكون بإختلافها ، لوجد أن هناك شعب واحد ، فمن حد تخوم مصر القديمة إلى المحيط الأطلسي نجد كل الشعوب تشترك في خصائص معينة رغم إختلاف طرق العيش ، التي قد تختلف من منطقة لأخرى بسبب ما تفرضه الظروف الطبيعية . و من هذه مظاهر هذه الوحدة التي نحاول ان نبرزها هناك اللغة ، و قد لا يكون ذلك باستخدام لغة واحدة في منطقة شمال إفريقيا كلها ، بل ما نقصده هو أن هناك لهجات متقاربة إلى حد التطابق ، و تكون في مجموعها ما يسمى باللغة الليبية[xiii] وقد أكد الليسانيين أن اللغة الليبية (الامازيغية) لها مكانتها المتميزة في تاريخ اللغات و تطورها ، و أنها أقدم من اللغات السامية نفسها[xiv] و يذهب البعض إلى أنها تنتمي إلى عائلة اللغات الأفروأسيوية حيث تتفرع هذه العائلات اللسانية و الخطاطة[xv] التالية تظهر هذه التفرعات مع تحفظنا على بعض الأمور :

إلى جانب اللغة التواصلية التي تحدثنا عنها آنفا ، إستعمل سكان شمال إفريقيا القدامى منظومة كتابية معقدة ، هي الخط الليبي الذي إنبثقت عنه ما يسميه الباحثين اليوم بلغة الطوارق تيفيناغ ، التي ولاشك لا تعكس المنظومة الكتابية الليبية بشكل كبير ، لأن هذه الأخيرة تعرضت لمنافسة قوية ، من طرف اللغة البونية الفينيقية ، ثم اللغة اللاتينية و العربية فيما بعد [xvi] ، وهو إستنتاج نراه مقبول ، لأن هذه الكتابة بقيت حية في أعماق الصحراء الإفريقية في الوقت الذي اندثرت في شمال إفريقيا الذي كانت في وجه الإحتلالات المتوالية ، لكن بالرغم من وجود لغة الطوارق لليوم إلا أنها لم تساعد كثيرا في فك رموز اللغة الليبية الأصيلة ، و ذلك يمكن إرجاعه إلى عامل الزمن الذي لا يترك شيئا على حاله ، فكما تعلمون مع الزمن تتبدل الأحوال و الأمور ، و حتى اللغات التي تنبثق عنها لهجات ، و هذه بدورها تتفرع عنها لهجات و لغات أخرى . نقف هنا و ننتقل إلى مميزات بقايا اللغة الليبية (الأمازيغية) ، من الناحية التاريخية تتميز بقدم تواجدها على أرض شمال إفريقيا و الصحراء الكبرى منذ ما لا يقل عن 10000 سنة و الشواهد الأثرية لخير دليل على ذلك ، كما أن هذه الشواهد تؤكد بأنها لغة تكونت بكيفية طبيعية[xvii] وليست نتيجة لتأثيرات الحضارات الشهيرة ـــ و خير دليل على ذلك هو أن العلماء عجزوا عن فك رموزها كما

فعلوا مع اللغة الهيروغليفية و السومرية إذا ما افترضنا أن ما توصلوا إليه في تأويلاتهم لتلك الرموز حقيقي، إذن هل لنا ان نفسر عجز العلماء عن فك رموز اللغة الليبية أنها محلية المنشأ ، لا صلة لها بتأثيرات لغات الحضارات الأخرى .

الميزة الثانية أن اللغة (التواصلية) الليبية انتشرت على مساحة كبيرة تتجاوز 9 مليون كلم مربع ، و استمرت فيها لمدة طويلة امتدت لآلاف السنين ، و هي استمرارية غير متقطعة في الزمان بدليل أنها لا تزال حاضرة عند كل شعوب إفريقيا الشمالية

الميزة الثالثة هي أنها لغة قائمة بذاتها لها أساليبها في وضع اللفظ و صرفه و تركيبه بشهادة الباحثين اللسانيين ، كما انها لغة لا تتصف بالمعيارية فقواعدها التركيبية و الصرفية و المعجمية تبقى ضمنية

الميزة الرابعة أنها كانت مكتوبة في زمن مضى بواسطة أبجدية تيفيناغ الضاربة في القدم و التي يجمع اللسانيون المهتمون بالدراسات المقارنة ، على أنها من أقدم اللغات المكتوبة ، و يستندون في ذلك على الآثار المادية المتمثلة في النقوش الصخرية ، ونقائش الشواهد و اللوحات المنتشرة في مختلف مناطق شمال إفريقيا ، بل يذهب بعض المؤرخين إلى أن تيفيناغ أول نظام صوتي للكتابة أحدثه الإنسان خلال الألف الثاني ق م و قبل الأبجدية الفينيقية[xviii].

ـــ الفن و التأريخ في الحضارة الليبية القديمة

تتعدد الطرق و الوسائل التي يعبر بها الإنسان عن مكنوناته و أفكاره ، فالإنسان بفطرته يحاول تفريغ تلك مكنوناته فكان يعبر عنها في عدة أشكال فنية ، و كان الرسم أول ما أجاده الإنسان القديم ، وعن طريق هذا الفن ستبدأ الكتابة بالظهور، فالكتابة في مرحلتها الأولى كانت تصويرية ، فقد أبدع إنسان شمال إفريقيا في هذا الفن، حيث كانوا يعتبرون الفن ظاهرة اعتيادية للحياة ، لا لمتعة النخبة فقط ، فقد كانوا يزخرفون الأثاث المستعمل ، و الحلي التي ترتبط بطقوس سحرية [xix] ، فقد عثر الباحثون على نقوش لحيوانات مثل الفيلة و الأسود ، و الفهود و الزرافات[xx] ، منقوشة بدقة متناهية تضاهي دقة أكبر فناني العصر الراهن ، كما استعملوا الألوان في الرسم . و يمكننا أن نفترض أن الإنسان الليبي القديم ، كان بممارسته لهذه الفنون ، يؤرخ للأحداث التي تهمه بالدرجة الأولى ، حيث كان شغله الشاغل الحصول على الغذاء و اتقاء شر

الحيوانات المتوحشة ، فكان يرسم أنواع مختلفة من الحيوانات ، و كل ما يشغل باله ، و الكثير من الباحثين في تاريخ الذهنيات يشتغلون على هذه الرسوم ، لمعرفة كيف كان يفكر الإنسان القديم

ـــ المؤسسات الإجتماعية و السياسية للحضارة الليبية

تجنبا للإطالة ، سنقتصر في مقالنا هذا على مؤسسة واحدة في كل مجال ، فإخترنا حسب ما وفرته لنا المادة المرجعية المؤسسة الدينية في المجال الإجتماعي ، و مؤسسة الأكليد (العرش – الملكية) في المجال السياسي ، حيث عرف الإنسان الليبي بدوره تنظيمات من هذا النوع .

ـــ المؤسسة الدينية :

إن الفكر الديني متجدر في ذهنية الإنسان فقد إعتقد الإنسان في وجود ظواهر خفية متحكمة بحياته ، فجسمها و مثلها في أجسام مادية أو طقوس روحانية ، و كغيره عرف الإنسان الليبي القديم نفس مراحل تطور الفكر الديني عند الإنسان القديم بصفة عامة ، فتطور فكره الديني من الاعتقاد في وجود قوى خفية تتحكم في مصيره ، و عبد مظاهر القوى الطبيعية ، كالجبال و الكهوف و الماء و النجوم و الكواكب ، كما عبدوا الموتى و اعتقدوا في الجن و الشياطين ، لدرجة انه كان يظن أن كل حركة من حركات مظاهر الطبيعة وراءها روح من الأرواح [xxi] ، فقد كان إعتقاد الإنسان الليبي في الجن قويا ، و هو ما أولد ألهة محلية و غنتقلوا بذلك لمرحلة الإعتقاد في الأرباب ، التي استمروا في عبادتها إلى العهد الروماني ، ويقول البعض أنهم استبدلوها بآلهة فينيقية ، و إغريقية و رومانية [xxii] ، في حين يؤكد ديودور الصقلي أن " الأرباب ولدت في بلادهم (أي الليبيين) " و هو يؤكده شاعرهم هوميروس ، و أب التاريخ هيرودوت بقوله " أن القاطنين عند بحيرة الترينونية يقربنون لأثينا خاصة ، و من بعدها لتريتون و بوصيدون "[xxiii] و يعتقد الباحثين أن أثينا التي يتحدث عنها هيرودوت ما هي إلا الإلاهة المعروفة فيما بعد بتانيت التي يرجعون أصلها إلى القرطاجيين ، و أن تسميته لها بأثينا إنما هي محاولة لترجمة أسماءها إلى الإغريقية ، و لصعوبة ترجمتها اكتفوا بذكر الآلهة الإغريقية التي تشبهها في أدوارها ووظائفها و بجانب الأرباب الثلاثة التي ذكرها هيرودوت ، هناك أرباب ليبية كثيرة منها الربة إفريقيا .... و الربة أليسوا ، و الأرباب باكاكاس و كورزيل و آمون و أنزار ، قد ذكرت مجموعة من الأرباب الاخرى في لوحة باغا [xxiv]، يعتقد عند الباحثين ان الإله أمون عبده الليبيين عن كريق تأثرهم بالحضارة الفرعونية ، لكن النقوش الأثرية المكتشفة في جبال الأطلس و التي تظهر أكباشا مغطاة

الرؤوس بغطاء دائري الشكل ، توضح أن الليبيين عبدوا الإله أمون قبل المصرين ، حيث شبهه البعض بقرص كبش آمون المصري الذي يرمز إلى إله الشمس[xxv] (توضح التحليلات المخبرية على تلك النقوش أنها ترجع إلى العصر الحجري الحديث ، أي قبل أن يعرف في مصر) ، نكتفي بهذا القدر هنا و لمن أراد الإستزادة في هذا المجال عليه بكتاب جذور بعض مظاهر الحضارة الامازيغية لمصطفى أعشى . لننتقل إلى مؤسسة الأغليد ـــ العرش

ـــ مؤسسة الأغليد ـــ العرش ـــ

مر الإنسان الليبي القديم مثله مثل غيره ، بمرحلة الالتقاط و الصيد فالرعي ثم الزراعة ، هذه الأخيرة كانت تحتم على الإنسان الإستقرار لذلك يذهب معظم الباحثين إلى ان حياة الإستقرار مرادفة لمرحلة الزراعة ، فالكهوف المكتشفة و التي عمرها الإنسان الليبي القديم لدليل آخر على ان هذا الإنسان عرف بدوره مرحلة إستقرار مبكرة ، قد تكون حتى قبل تعاطيه للزراعة ، و كأي جماعة بشرية مستقره تحتم عليها ضرورات الحياة الرعوية و الفلاحية الانتظام في أحلاف قبلية لحماية نفوذها[xxvi] و صد هجمات الجيران ، فكانت الحاجة لمؤسسة تنظم الحياة العامة ، و تتخذ القرارات الهامة ، فتمخضت عن هذه الحاجة مؤسسة الأغليد كمؤسسة سياسية يخضع لها المجتمع الليبي ، خاصة إذا علمنا أن المجتمع الليبي يقوم على الخلية الأصيلة ، فكل أفراد المجتمع ينحدرون من جد واحد فكانوا يشكلون عائلة كبيرة تخضع لقوانين مؤسسة الأكليد ، هذه المؤسسة التي تعتبر أهم تنظيم سياسي في تاريخ المجتمع الليبي ، و نظرا لأهميتها وضعت شروط محددة تستوجب توفرها لتؤهل حاملها حتى يصبح أكليدا[xxvii] ، متزعما لهذه المؤسسة من ضمنها :

أن يكون الأكبر سنا في العائلة بمفهومها العام ، حيث يتقلد العرش أكبر الأمراء و ليس شرطا ان يكون أحد بناء الأكليد السابق، و قد روعي هذا الشرط حتى يضمن أن يكون الأكليد ذو تجربة و خبرة سياسية في تسيير شؤون المملكة ، لكن ما يعاب على هذا الشرط ، أن الملك الجديد غالبا ما يكون شيخا هرما ، و مدة حكمه تكون قصيرة نسبيا ، وكان الأبناء الطموحين يتوثبون للحصول على العرش ، وإن تطلب الأمر قتل بعضهم البعض[xxviii].

الشرط الثاني أن يكون ذكرا : فقد كان الملك في الممالك الأمازيغية يتقلده الذكور دون الإناث ، و ذلك ليس تقليلا من حكمتها أو دهائها ، و إنما مراعاة لتكوينها الفيزيولوجي ، حيث أن مهمة الأكليد تتطلب المشاركة في الحروب التي كان السمة الغالبة على المجتمع الليبي ، فكانت

تفرض على الملك الخروج و المشاركة في الحروب ، ودليل ذلك أن الملك الليبي ماسينيسا اكليد نوميديا ، حارب و هو يبلغ من العمر 90 سنة ، كما إعتقل كل من الملكين سيفاكس و يوغورطا في ساحة المعركة [xxix].

الشرط الثالث أن لا يكون دخيلا على العائلة كأزواج بنات الحكام ، و بذلك يضمن بقاء الحكم في يد العائلة الأصلية .

الشرط الرابع : أن يكون مولودا من زواج شرعي ، فقد كان الملوك الليبيين يتمتعون بحق تعدد الزوجات ، كما كانت لهم علاقات خارج مؤسسة الزواج ، فجاء هذا القانون ليمنع الأبناء الغير شرعيين من الحكم ، فمثلا يشير بعض الباحثين الذي إعتمد عليهم أحمد زاهد ، إلى أن الملك ماسينيسا كان له 44 ولدا ، لكن المصادر الكلاسيكية الأجنبية لم تذكر إلا 3 منهم هم كالوسا ، مسيبسا ، و مستنبعل ، إلا أن هذا الشرط عرف إستثناءا مع يوغورطاالإبن الغير الشرعي لماسينيسا حيث تقلد العرش بحد السيف[xxx].

إن نظام الأحلاف القبلية التي كان سائدا في المجتمع الليبي ، حتم على هذا الأخير إنشاء قرى ، أصبحت فيما بعد جمهوريات أو ممالك خاضعة لسلطة الأكليد و مجلس الشيوخ المتكون من رؤساء القبائل المكونة للمملكة و الذي كان يقام لأرائهم وزن يتناسب مع عدد رعاياهم [xxxi] ، من هنا يمكننا إستنتاج أن نظام الحكم عند المجتمع الليبي يتكون من مؤسسة الأكليد التي تجمع في يدها السلطات المطلقة ، و هيئة رؤساء القبائل و بمعنى أخر هناك الإدارة المركزية في يد الملك ،ـــ و غالبا ما تتركز هذه السلطة في يد القبيلة النواة ـــ و الإدارة المحلية يمثلها رؤساء القبائل .

إن تاريخ حضارة شمال إفريقيا تاريخ عريق موغل في القدم ، لا توفيه هذه السطور ولا المجلدات التي كتبت عنه حقه ، إذن أنه لازال يحتاج إلى التنقيب الأثري حتى يتسنى كتابة تاريخ دقيق ومو ضوعي.

البيبلوغرافيا

[1]عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، ج 1 ، ص 93

[1]شارل أندري جوليان ، **تاريخ إفريقيا الشمالية** ، تعريب محمد مزالي و البشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر و التوزيع ، الطبعة 5 ، ص :12

[1]شارل أندر جوليان ، **تاريخ شمال إفريقيا** ، مرجع سابق ، ص : 11

[1]محمد شفيق ، **33 قرنا من تاريخ الامازيغيين** ، نسخة إلكترونية مصورة ، ص : 10

[1]إسم مكان Soloies

[1] إمتداد صخري يلامس البحر

[1]عبد المنعم المحجوب ، **رحلة حنون و الطواف حول الأرجاء الليبية وراء أعمدة هرقل**، نشر دار تانيت ، طبع دار الطالب المساهمة ، ط1 ،2012، ص: 43

[1]العربي أكنينح ، **في المسألة الأمازيغية اصول المغاربة** ، مطبعة أنفو ـ برانت ، الطبعة 3 ،فاس ، 2006 ، ص 3
[1]العربي عقون ،**الأمازيغ عبر التاريخ نظرة موجزة في الهوية والأصول**، نسخة إلكترونية ، ص : 7
[1]العربي أكنينح ، **في المسألة الامازيغية** ، مرجع سابق ، ص 6
[1]نفسه ، ص : 7 و 8
[1]مصطفى أعشى ، **جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ما قبل التاريخ** ، الناشر مركز طارق بن زياد ، ط1 ، فيد برانت ، 2002 ، الرباط ، ص 11
[1]شارل أندري جوليان ، **تاريخ إفريقيا الشمالية** ، مرجع سابق ، ص 66
[1]مصطفى أعشى، **جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية** ، مرجع سابق ، ص :67
[1]نفسه ، ص 74
[1]العربي عقون ، **الأمازيغ عبر التاريخ** ، مرجع سابق ، ص : 3
[1]مصطفى أعشى ، جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية ، مرجع سابق ، ص 81
[1]نفسه ، ص : 81 - 83
[1]شارل أندري جوليان ، **تاريخ إفريقيا الشمالية** ، مرجع سابق ، ص 77
[1]نفسه ، ص 60
[1]مصطفى أعشى ، **جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية** ، مرجع سابق ، ص 32
[1]شارل أندري جوليان ، **تاريخ إفريقيا الشمالية** ، مرجع سابق ، ص : 79
[1]مصطفى أعشى ، مرجع سابق ، ص : 33
[1]نفسه ، ص 36
[1]شارل أندري جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، مرجع سابق ، ص : 60
[1]شارل أندري جوليان ، **تاريخ إفريقيا الشمالية** ، مرجع سابق ، ص : 81
[1]أحمد زاهد، **"مؤسسة الأكليد في ظل الممالك الأمازيغية القديمة"**، الندوة الدولية حول تاريخ الأمازيغ القديم ، ج1، الدورة 6 للجامعة الصيفية أكادير ، يوليو 2000 ، ط1 ، دار أبي رقراق للطباعة و النشر ،2002 ، الرباط، ص :45
[1]أحمد زاهد ،"مؤسسة الأكليد في ظل الممالك الأمازيغية القديمة"، مرجع سابق ، ص : 46
[1]أحمد زاهد ،**"مؤسسة الأكليد في ضل الممالك الأمازيغية "**، مرجع سابق ، ص : 48
[1]نفسه ، ص : 49-50
[1]شارل أندري جوليان ، **تاريخ إفريقيا الشمالية** ، مرجع سابق ،ً 82

تاريخ الأوبئة بالمغرب

جوائح القرن 16م وآثارها على التشكيلة الاجتماعية بالمغرب

بوشتى عرية
باحث في التاريخ
ماستر التاريخ المغاربي
المقارن ـ جامعة ابن طفيل بالقنيطرة

عانت بلاد المغرب لفترات طويلة من تاريخها الوسيط والحديث من مشكل الكوارث الطبيعية والبشرية، و لم تستثن فترة من عمر كل دولة حكمت هذه البلاد إلا وطبعتها الأزمات والجوائح، منها ما كان خارج إرادة البشر كالجفاف والأوبئة والطواعين، ومنها ما نتج عن تدهور العلاقات وتخلف السياسات كالفتن والثورات والتمردات، وغالبا ما كانت هذه الأزمات التي تقع بشكل دوري حسب ما صرحت به المصادر، تؤثر بشكل سلبي على بنية البلاد، فتهلك الحرث والنسل، وتعيد البلاد إلى نقطة البداية.

سنحاول بدء باستعراض بعض المعطيات الإحصائية التي أوردها عثمان المنصوري حول عدد الكوارث الطبيعية التي ضربت المغرب خلال القرن 16م، فيكون المغرب في هذا القرن تعرض للوباء (8 مرات)، وللجفاف والمجاعة (12 مرة)، و(4 مرات) للسيول والفيضانات، و(4 مرات) لهجوم الجراد، ومرة واحدة لزلزال شديد. وبذلك يكون عدد السنوات التي رزح فيها المغرب تحت عبء هذه الكوارث قد وصل إلى نصف قرن[xxxii]، أصيب فيها البلد بحوالي 29 كارثة، وهي نصف ما أصيبت به البلاد التونسية مثلا بحسب المصادر[xxxiii].

1. الجفاف والقحط

يعتبر الجفاف والقحط من الظواهر الدورية في تاريخ المغرب، وتشهد بذلك مصادر الفترة التي تحدثت بإسهاب عن نتائجها الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة، واختلاف قوتها من فترة إلى أخرى، ومن منطقة إلى أخرى. والواضح من معلومات المصادر أن الجفاف والمجاعات والأوبئة سمة طاغية على تاريخ البلاد الحديث، ولا يمكن الحديث عن الأوبئة دون ربطها بالمجاعة وربط هذه الأخيرة بالجفاف.

وبنية المغرب الجغرافية والمناخية، تفرض بالضرورة تساقطات مطرية في فترات محددة من السنة؛ في المواسم الفلاحية المرتبطة بأشهر فصلي الشتاء والربيع في مناطق الشمال، وفصل الخريف بالنسبة لمناطق الجنوب والواحات "غير أنه إذا لم يتزل مطر فيما بين 25 أبريل و5 ماي، تضرر محصول السنة كثيرا"[xxxiv]. وتشير المصادر المؤرخة لفترة القرن 16م، إلى توالي سنوات الجفاف يرافقها نقص كبير في المحاصيل بل وانعدامها أحيانا، مما تسبب في العديد من الأزمات الداخلية.

- سنوات الجفاف والقحط: أصاب القحط المغرب ثمان مرات خلال سنوات متفرقة من القرن 16؛ من 1516 إلى 1518، 1520، 1552، وذلك بحسب ما جادت به المصادر، ولعل ما يهمنا من رصد سنوات هذا الجفاف هو مدى تأثيره على البنية الاجتماعية والاقتصادية للبلد. فالجفاف الأول ضرب السهول الأطلسية المحيطة بأزمور مما استدعى تزويد المنطقة بالقمح من الأندلس. وترصد الوثائق البرتغالية أن هذا الجفاف تسبب في قحط المنطقة[xxxv]، وفي 1518 أصاب الجذب مدينة أكادير، وفاقم ضعف المحاصيل الزراعية في قلب سير التجارة ورفض بعض القبائل أداء الضرائب وخروجها إلى التمرد.

- تأثير الجفاف على بنية الاقتصاد: يعتبر جفاف 1520 من أخطر ما عرفه المغرب في هذا القرن، انحصر المطر وابتليت البلاد واشتد النقص في القمح والمؤن، وارتفعت الأسعار حتى صار الناس يجوبون الأراضي بحثا عن طريدة أو نبت أكيل، وازدادت حدته في السنة الموالية حيث كان أقوى وأصعب[xxxvi]، ودامت هذه الآفة ثلاث سنوات، وما انقشعت غمتها إلا عام 1524[xxxvii]. ويصف ابن أبي محلي أثر جفاف نهاية القرن التي فاقت سابقاتها بقوله "تغلى الأسعار من قلة الأمطار، وتغلى المواشي ويقل الزرع...ففرت إلى الصحراء قبائل السوس الأقصى...والله لقد جاعت الناس من كل ناحية جوعا ما سمعنا به قط"[xxxviii]. ولعل قوة الجفاف تطغى أمام البنية الفلاحية البسيطة، فتغذية المغاربة تعتمد على المحصول الزراعي، لأن الماء هو المحدد الأساسي للكميات المنتجة، ولأن قلته أو انعدامه يتسبب في ضعف هذه الكميات[xxxix]، فتظهر المجاعة وتنتشر الأوبئة وتشتعل الفتن وتتوقف المداخيل ويقع الانهيار الديموغرافي ويتحول الاستقرار إلى ترحال ويتقلص النشاط الزراعي لصالح النشاط الرعوي.

2. المجاعات

يرتبط نشوء المجاعات بعوامل مختلفة، بعضها طبيعي كنقص أو انعدام الأمطار، وبعضها الآخر بشري تسببه الفتن والثورات التي تأتي أحيانا على الأخضر واليابس، وقد تنشأ أحيانا عن ظواهر أخرى كالجراد والأوبئة والفيضانات.

تعتبر مجاعة 1520م أكبر مجاعة عرفها المغرب في القرن 16م، حيث اضطر الناس إلى بيع أبنائهم وإخوانهم وأنفسهم مقابل ضمان القوت، بل لقد استغلت القبائل صراعاتها لتمارس عمليات الخطف والأسر في صفوف القبائل الأخرى، وبيع الأسرى للبرتغاليين الذين نشّطوا عمليات البيع، ونقلوا إلى البرتغال أعدادا من المغاربة الجائعين[xl] كرقيق لتعويض حاجتها إلى اليد العاملة. وازدات المجاعة قساوة خلال السنة الموالية، وخاصة في المناطق المتاخمة للثغور البرتغالية؛ في دكالة وعبدة وسوس، حيث فقدت القبائل الكثير من سكانها وماشيتها وطاقاتها الإنتاجية[xli].

ويرصد روزنبيرجي اشتداد هذه المجاعة من خلال وصف البرتغالي دامياو دي كويش (Damiao de gois) أنه في هذا العام (1521م)، "اجتاحت مجاعة شديدة هذا القسم من إفريقيا، كما اجتاحت الجزيرة الإيبيرية، فكانت من الفداحة أن اضطر معها المغاربة سكان آسفي وأزمور إلى طلب المرور من الملك (دون منويل) للمجيء إلى البرتغال عساهم وقد اعتنقوا المسيحية أن

يصيبوا فيها أقواتا، وهذا ما لم يكن في مقدورهم أن يفعلوه يومئذ في بلدهم بسبب ما كان فيه من قحط شديد"[xlii]. وهذا الأمر يطرح أكثر من سؤال حول إمكانية ارتداد المسلمين عن دينهم، ودور الأشراف والزوايا في تعبئة الأفواج الكبيرة من المغاربة لجهاد الاحتلال، وأيضا حول مصداقية هذه المعلومات التي تصدر عن مواطن برتغالي.

غير أن روزنبيرجي يأتينا بتصريح آخر، وهذه المرة من دييكو دي طوريس (Diego de Torres)، لتأكيد الكلام السابق يقول فيه: "كانوا يتخطفون بعضهم بعضا، ويبيعون أنفسهم إلى المسيحيين في القلاع والحصون بأسعار بخسة زهيدة، بحيث كان الرجل المغربي أو المرأة المغربية يبيعان نفسيهما مقابل طبق من التين أو من الزبيب، وبلغت المجاعة من الفداحة أن صارت ببني البشر وليس أرخص منه"[xliii]. قد يبدو هذا الكلام مقبولا إذا ما قورن بحجم المجاعة ومخلفاتها على معاش الناس وأرواحهم، وعلى حجم الخسائر التي تسببت فيها، لكنه يبدو أيضا حجبا لما كانت حاجة الإيبيريين شديدة إلى اليد العاملة من العبيد والبربر لتشغيلهم في مستعمراتها الأمريكية، وهو ما يبرر عمليات الاختطاف التي مارسها الإيبيريون في السواحل والثغور المحتلة.

وظهرت في عام 1540م مجاعة ألّمت بمنطقة الجنوب، وأدت إلى إخلاء المداشر وفرار السكان نحو مملكة فاس، وبسبب هذه المجاعة قل القمح في مراكش وارتفعت أسعاره حتى وصلت صحفة القمح إلى عشر أواق مقابل نصفها بفاس. وكانت فاس من بين المدن التي يلجأ إليها السكان أوقات الجوائح والمجاعات، لاعتبار نشاط سكانها ورواج أسواقها، وكان سكانها يستغلون فترات ما بين الأزمات لتحقيق الاكتفاء الغذائي ومواجهة الأزمات المحتمل وقوعها لاحقا[xliv].

ويبدو أن هاجس الخوف من جوائح الجفاف والمجاعات والأوبئة والكوارث الأخرى المدمرة كان يرخي بظلاله على حياة الناس، وعلى تفكيرهم اليومي، وعلى معتقداتهم الدينية، ولربما أصبح الخوف منها ومن عنف السلطة وتسلط القبائل، بنية متجذرة في الذهنية المغربية. ومما يدل على ذلك، أنه كان ينظر أحيانا إلى هذه المجاعات وكأنها عقاب من السماء. ففي مجاعة 1579م، كان الناس يعتقدون أن سببها هو اختلاط أموال الحلال بالحرام بعد غنيمة معركة وادي المخازن، يقول القادري: "...وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها، إلا أنها لم تقسم، وإنما انتهبها الناس، وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام، فظهر ذلك من غلاء وغيره، وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ"[xlv].

وبعد عشر سنوات من المجاعة السابقة، عمت البلاد مجاعة أخرى كانت لها انعكاسات خطيرة على الأوضاع السياسية والاقتصادية...واستقبل القرن 17م، مجاعات أخرى كانت تحصد الأرواح، وتوقع الغلاء، وتعطل الإنتاج. ويرى البعض أن المجاعات على خلاف الأوبئة كانت تؤدي إلى إنقاص عدد العمال في الأرض أو في المدن، فيمكنها بذلك أن تحسن من ظروفهم المعيشية، إذ ترفع من سومة الخدمات التي يقدمونها إلى أصحاب الأرض أو أصحاب السلطة، وتجعل هؤلاء أكثر استعدادا لمجازاتهم عن تلك الخدمات[xlvi].

وحتى إن سلمنا بصحة هذا الرأي، فإن عدد المستفيدين من مخلفات هذه المجاعات سواء ممن تبقى من العمال أو ممن يغتنون بارتفاع الأسعار لا يعدو أن يتجاوز العشرات أو المئات على أبعد تقدير، لأن الأضرار التي تخلفها هذه المساغب في الأرواح والممتلكات، والتي تحدثت عنها المصادر بإسهاب لا تمس الأرواح فقط، وإنما تعطل عجلة سير البنى الاقتصادية والاجتماعية للبلاد.

كانت للمجاعات آثار وخيمة على بنية سكان البلاد، وإذا أضيفت إليها الكوارث الأخرى، يمكننا تصور مدى الخسائر الديموغرافية التي أصابت المغرب أكثر من البلاد المجاورة في هذه الفترة، وجعلت ساكنته يتزلون من خمسة ملايين إلى أقل من ثلاثة ملايين نسمة من القرن 16 حتى القرن 18م[xlvii].

3. الأوبئة

تعتبر أوبئة القرنين 16 و17م من أكثر الكوارث خطرا على بلاد المغرب، لما خلفته من أضرار وضحايا يفوق بأضعاف ما تخلفه الحروب والكوارث الأخرى، وكانت هذه الأوبئة تنتشر بين بلدان المغارب أو تأتي من الضفة الشمالية للمتوسط أو ترتبط بعنف الحروب والمجاعات، وكان أشدها خطرا وباء الطاعون الذي يمتاز بانتشاره السريع، وفتكه الذريع بالناس.

ويلاحظ أن الإصابة بالوباء تشبه في دوريتها حدوث المجاعات، تتراوح المدة بينهما ما بين سنتين إلى واحد وعشرين سنة، تليها فترات استراحة بالنسبة للسكان والاقتصاد، وأحيانا تجتمع كارثتان أو أكثر، وتكون النتائج مدمرة، مثلما حدث في بعض سنوات القرن 16م وبدايات القرن الموالي.

ظهرت أولى الأوبئة سنة 1509م بمدينة فاس، وتسببت في خسائر بشرية مهمة، ويعتقد أن هذا الوباء قدم من شمال المتوسط عن طريق تونس، كما يعتقد أيضا أنه نفس الوباء الذي أصاب منطقة سوس عام 1511م، وسمي طاعونا[xlviii].

وتعتبر أوبئة سنوات 1521 و1557 و1579 و1598...من أخطر أوبئة القرن 16م، فالأول كان شديد الوطأة على شمال المغرب، وتدل على ذلك شهادة رودريكس Rodrigues الذي ذكر أنه أتى على القسم الأكبر من ساكنة الشمال، وارتفع عدد ضحاياه ما بين 20 و25 في اليوم، ومثله من المرضى، وبلغ الهلع بالناس أن صاروا لا يجرؤون على مبادلة بعضهم الكلام[xlix]. والثاني كان أشد منه وطأة، إذ كان يوقع كل يوم بين 1000 و1500 من الضحايا، وقيل أيضا 3000 ضحية، وبلغ عدد ضحاياه من اليهود حوالي 1640. ومن شدته أنه أثنى السلطان الغالب عن دخول مدينة فاس وبقي في بادس[l]، وزادت من حدته أنه انتشر في باقي جهات البلاد حتى قال عنه صاحب الاستقصا "وفي سنة خمس وستين وتسعمائة كان بالمغرب وباء عظيم كسا سهله وجباله وأفنى كماته وأبطاله واتصل أمره إلى سنة ست وستين وبعدها"[li].

أما الثالث فقد سمي بعام (كحيكحة) حيث اقترن الوباء بالمجاعة، وفيه كان الناس يسعلون ثم يموتون بعد ثلاثة أيام أو أربعة، وتتفق المصادر الأوربية أن الوباء كان فتاكا، لذلك فاحتمال ارتفاع عدد الضحايا المغاربة وارد جدا. وتذهب بعض المصادر إلى اعتبار توالي المجاعة والوباء عقابا من الله بما وقع من النهب الفاحش لغنائم معركة وادي المخازن، والتي لم تقتسم بها تقتضيه السُّنة[lii].

ويرصد الأسير البرتغالي دي صالدانيا نتائج وباء 1598م الذي كان شاهد عيان عليه، أنه انتشر بحدة ساد الاعتقاد معها بأنه الأكثر فتكا في العالم، ذلك بأن أربعة من أصل خمسة أشخاص توفوا به في مراكش ونواحيها، وقد اضطر السلطان إلى نصب خيامه خارج المدينة احترازا من الوباء[liii]. ويضيف أن الوباء انتشر بحدة كانت معه حياة المريض لا تتجاوز ثلاثة أيام. وتوفي به من الأسرى حوالي 1600 أسير من أصل 2400، ومع ذلك لم يكن في استطاعة أحد أن يقاوم المرض أكثر من أربعة أيام[liv]. واستمر انتشار الأوبئة مطلع القرن 17م، مثل الوباء الذي أودى بحياة السلطان أحمد المنصور في 1603م[lv].

ليس الهدف من سرد كرونولوجيا بعض الأوبئة تكثيف المعلومات، بقدر ما توخينا تبيان اشتداد الأوبئة التي خيمت على فترات القرن 16م المغربي، والانتباه إلى مخاطرها الكبيرة على بنيات البلاد الاجتماعية والاقتصادية.

لا يفرق الوباء بين الأغنياء والفقراء ولا بين المسلمين واليهود، ولا بين العاملين في المجال الزراعي وغيرهم. فالوباء يأتي على الصناع والتجار والموظفين وكبار رجال الدولة والجيش...وإن نقص السكان يؤدي إلى نقص الإنتاج وإلى نقص الموارد الجبائية، وضعف قوى الإنتاج[lvi].

عند ظهور الوباء، تقل الاتصالات، وتغلق الأسواق، وتلغى التجمعات والمواسم، ويفر الناس إلى الجبال، وتتحرك القبائل الرعوية نحو السهول الفارغة، وتُبدل الأنشطة الزراعية بالرعوية، وتنقص اليد العمالة، وتضيع الخبرات والمهارات ورؤوس الأموال والأطر.

وهكذا انطبع القرن 16 ومطلع القرن الموالي بأوبئة شديدة الفتك، ليس فقط على بلاد المغارب، وإنما على أوربا وشمال إفريقيا وعلى الإمبراطورية العثمانية.

البيبلوغرافيا

[1] – المنصوري عثمان، التجارة بالمغرب في القرن 16م (مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 50، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2001، ص 325.

[1] – روزنبيرجي برنار والتريكي حميد، المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات دار الأمان، الرباط، الطبعة الثانية، 2010، صص 266– 268.

[1] – الحسن الوزان نقلا عن استيتو محمد، فائدة كتب الرحلات الجغرافية في كتابة التاريخ الاقتصادي للمغرب (نموذج وصف إفريقيا للحسن الوزان)، ضمن كتاب (المغرب في عهد الوطاسيين من خلال وصف إفريقيا للحسن الوزان)،. ص 46.

[1] – روزنبرجي والتريكي، م. س ، ص 25.

[1] – مزين محمد، فاس وباديتها (مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549– 1637)، ج2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 12، الطبعة الأولى، 1986، ص 407.

[1] – روزنبرجي والتريكي، م. س، ص 32.

[1] – القدوري عبد المجيد، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، 1990، ص 21.

[1] – ن، م، س، ص 22.

[1] – المنصوري، م. س، ص 57.

[1] – ن. م. ص 251.

[1] – روزنبيرجي والتريكي، م. س، ص45.

[1] – ن. م. صص 45. 46.

[1] – مزين، م. س. ج2. ص 409.

[1] – القادري محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم 3، الرباط 1977، ج1، ص 370.

[1] – روزنبيرجي والتريكي، م. س، ص 222.

[1] – أبو إدريس إدريس، قضايا في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإيكولوجي للمغرب الحديث (ق 16،17،18)، مطبعة وراقة سجلماسة، مكناس 2008، ص 78.

[1] – روزنبيرجي والتريكي، م. س، ص 25.

[1] – ن. م. صص 34. 36.

[1] – ن. م. ص 82.

[1] – الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، اعتنى به محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، م2. ج2. ط2. 2010، ص 285.

[1] – روزنبيرجي والتريكي، م. س، ص 86.

[1] – دي صالدانيا، دي صالدانيا (أنطونيو)، أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب، تحقيق إبراهيم بوطالب وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، طبع Rabat Net Maroc. 2011، ص 186.

[1] – ن. م. صص 189. 215.

[1] – روزنبيرجي والتريكي، م. س. ص 132.

[1] – المنصوري، م. س. ص 331.

المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء

الرحلة إلى السودان الغربي عبر الصحراء خلال العصر الوسيط

حمزة يحيى

باحث في تاريخ المغرب

لا ينكر أحد فضل كتب الرحلات والجغرافيا أو كتب المسالك والممالك في الكتابة التاريخية بشكل عام ؛ورصد بعض المعطيات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والذهنية لمنطقة ما أو قبيلة معينة خاصة تلك التي تدخل زمنيا في حقبة العصر الوسيط . كالمسالك والممالك لابن خرداذبة (ت. نحو 280ه) ؛ والبلدان لليعقوبي(ت. بعد 292 ه) ؛ والبلدان لابن الفقيه (ت.365ه) والمسالك و الممالك للأصطخري أو مسالك الممالك (ت.346 ه) أو صورة الأرض لابن حوقل (المتوفي بعد 367 ه) والمسالك والممالك للبكري (ت.487ه) .وكتابه أيضا المسمى معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . والاستبصار لمؤلف مجهول (المراكشي) (ت. قبل6ه) ونزهة المشتاق في اختراق

الآفاق للإدريسي (ت. قبل 6ه). ومعجم البلدان لياقوت الحموي (ت.626ه) ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري (ت.749ه). وكتاب ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (ت. 779ه)؛ ورحلة ابن خلدون (ت.808 ه) ؛والروض المعطار في خبر الاقطار للحميري (عاش في القرن 9 ه) ؛وغيرها كثير.

والموضوع الذي نود الغوص فيه وسبر أغواره يعتمد بشكل كبير على كتب الرحلات أو المسالك والممالك ؛نظرا لطبيعة الموضوع الذي تطغى عليه الأوصاف الجغرافية لمنطقة الصحراء الكبرى خاصة صحراء غرب إفريقيا خلال العصر الوسيط . في بعدها التاريخي وما يرتبط بذلك من قبائل وسكان الصحراء وطبيعة الصحراء وقساوتها وخطورتها على رواد القوافل التجارية وأيضا الوصف الذي خصصنا به الجمل ، دابة الصحراء . بما يرتبط بها من وصف بيولوجي وعرض لجملة من وظائف هذه الدابة الفريدة والمتميزة عبر مسرح الأحداث التي طبعت المجال والانسان الصحراوي ليس فقط خلال العصر الوسيط وإنما أيضا على مر العصور .

وقد ارتأينا في دراستنا أن نسلك المنهج التاريخي – الوصفي متسلحين في ذلك بما تجود علينا به كتب المسالك والممالك أو الرحلات في هذا المجال نظرا لعلاقة دراستنا بالمجال الصحراوي في السودان الغربي خلال العصر الوسيط.

بالإضافة إلى ذلك اعتمدنا على مجموعة من المراجع التي تناولت المضوع والمجال الذي نشتغل عليه والأحداث التي نستعرضها من زوايا متعددة ومختلفة.

والموضوع مجال الدراسة يتكون من ثلاث محاور ر ئيسة : المحور الأول: صحراء السودان الغربي خلال العصر الوسيط ؛ والمحور الثاني: معنون بدور الماء في الرحلة الصحراوية خلال العصر الوسيط ؛ والمحور الثالث : معنون بداية الجمل من الناحية البيولوجية والوظائفية خلال العصر الوسيط.

المحور الأول :صحراء السودان الغربي خلال العصر الوسيط :

تشير كلمة "صحراء" في معجم المعاني – الجامع إلى "1- صحراء (اسم) الجمع صحاري . صحار . صحراوات .الصحاري . صحراء . الصحراء : أرض فضاء واسعة فقيرة الماء والجمع صحاري سفينة الصحراء :الجمل .2- صحراء(اسم) صحراء فاعل من صحر 3- صحر(فعل).صحرا. وصحرة فهو أصحر .وهي صحراء .صحر الشيء كان في لونه حمرة خفيفة"[1]وعليه فالصحراء

أو الصحاري تمثل مفاوز وفيافي واسعة تشكل فيها ندرة المياه الخطر الحقيقي الذي يهدد حياة تجار القوافل الصحراوية ومن يرتاد الصحراء بوجه عام . وهذا ما سنتبينه في هذا المحور :

والصحراء موضوع الدراسة هي صحراء غرب إفريقيا أو كما تنعت تاريخيا بالسودان الغربي "حيث تمتد بلاد السودان على مساحة واسعة من غربي القارة الإفريقية بين منطقتين متباينتين طبيعيا وبشريا واقتصاديا : هما :الصحراء الإفريقية الشاسعة الأطراف في الشمال حيث لا تتم الحياة إلا في الواحات وحيث تكثر أنماط حياة الترحال والتنقل. والغابة الاستوائية المكتظة الأشجار موطن القبائل الزنجية البدائية "[2] .و القصد بالسودان الغربي أو بلاد ما وراء الصحراء الكبرى المناطق التي تضم دول إفريقية كغانا ومالي والتشاد والسنغال إلى حدود نهر النيجر " بعد أن كانت الصحراء في قرون جد متقدمة منطقة خصبة عرفت تصحرا في العصر النيوليتي إذ نضبت مياهها شيئا فشيئا بعد أن جفت الأنهار واختفت البحيرات وبذلك صار هذا الجزء الواسع الذي يصل بين شقي القارة الإفريقية يخضع لتأثيرات مناخية مختلفة الشدة والقساوة تجعل من التنقل أمرا صعبا ومستحيلا في بعض الأحيان . مما أدى في فترة معينة إلى تعزل إفريقيا السوداء عن باقي الحضارات العالمية إلى أن دخل الفاتحون العرب في شمال إفريقيا فظهرت محاولات عربية لكشف تلك المنطقة خصوصا بعد دخول الإسلام إلى غرب إفريقيا عن طريق قبائل البربر المغربية التي اعتنقت "[3] الإسلام .ونشاط القوافل التجارية إلى غرب إفريقيا مع أن السنغال ومملكة غانا القديمة انتشر فيها الإسلام عن كطريق المغرب[4]ولعب السودان الغربي أدوارا طلائعية في تجارة الذهب خاصة بين المغرب الأقصى بدوله عبر العصور . وبين عمالات السودان الغربي إضافة إلى الرقيق وبضائع أخرى . مع وجود استزاف حقيقي لمناجم الذهب بالسودان الغربي خلال العصر الوسيط [5]وبعد اكتشاف الاوروبيين لهذه المناجم في مرحلة السيطرة الكولونيالية حتى أصبحت بلاد غانا تنعت ببلاد التبر [6] .والطرق التجارية ساهمت في ربط شمال القارة الإفريقية بجنوبها و ربط شرقها بغربها منذ العصور القديمة [7] فقد ظلت الصحراء منذ العصور القديمة مسرحا للتدافع البشري بين شرق وغرب القارة الإفريقية حيث أن القبائل الكبيرة من الرحل كانت تتقدم ببطء طوال قرون صوب وسط المغرب الكبير. [8] كما أن السود سكنوا الصحراء منذ العصور منذ غابر الأزمان رغم خضوعهم لسيطرة أقوام عديدين من خيليين وجرمنتيين وطوارق. كما أن خضوعهم لسيطرة البربر ثم البربر المستعربة في شمال الصحراء[9] والى جانب السود في الصحراء هناك "البربر البدو المعروفين لبالبتر الذين يقيمون في الصحاري والواحات وهؤلاء يعيشون على

الرعي ويميلون إلى الإغارة على ما يجاورهم من نواحي العمران" [10] وعليه فالصحراء كانت مسرحا لطوائف بشرية مختلفة الأصول ومتباينة الأهداف في التواجد بالصحراء . إما بغرض الترحال وإيجاد قوت لدوابهم أو للإغارة وكسب أموال كخفر القوافل واعتراض سبيلها كما يفعل الطوارق [11] دون إغفال مساهمة قبائل الصحراء في خدمة التجارة الصحراوية كأدلاء أو حراس مقابل دفع ضرائب محددة [12].

ومهما يكن من أمر فالصحراء الإفريقية الكبرى لا تخلو من مخاطر ومشاق جسام تعترض حياة طاقم القوافل التجارية الصحراوية من تجار وأدلاء ودواب ؛حيث يقول ابن بطوطة " وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء .فلا يعلم أهل ايوالاتن بالقافلة ،فيهلك أهلها أو الكثير منهم. وتلك الصحراء كثيرة الشياطين .فإن كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك إذ لا طريق يظهر بها ولا اثر .إنما هي رمال تسفيها الريح فترى جبالا من الرمل في مكان ثم تراها قد انتقلت إلى سواه[13] والصحراء لابد لها من دليل وخبير وهو دائما رجل الاستقامة والشجاعة والثبات لمعرفته بالنجوم ،وله تجربة من خلال الرحلات المتكررة ويعلم مخاطر الصحراء ويعرف طرق تجنبها [14]ويقول الحميري عن المفازة الكبرى " وصحراء تسيير تلي جبل بنوان وعليها يدخل المسافرون الى أودغست وغانة وغيرهما .وهذه الصحراء قليلة الأنس لا عامر بها والماء بها قليل . يتزودونه من مجابات معلومة وفي هذه الصحراء حيات كثيرة طويلة القدود غليظة الأجسام يصيدونها السودان "[15] إضافة إلى السوام ؛ الحرارة مرتفعة والمياه قليلة والعواصف الرملية [16]التي تتلف الدليل عن تحديد المسلك الصائب فتهلك القافلة أو تخنق الآبار ونقط الماء الضرورية لحياة القافلة [17]وعن مفاوز الصحراء يورد البكري " إذا رأى الرائي العظم في تلك الصحراء من بعيد حسبه قصرا وإن رأى بعرة حسبها رجلا "[18] وكثيرا ما يصادف رجال القوافل أعدادا كبيرة من الهياكل العظمية الآدمية التي تكشف عنها الرياح ،حين تحمل الرمال التي كانت تغطيها كما هو الحال في الصحراء الجنوبية المحيطة بالواحات الخارجية في مصر [19].

ولعل أبرز خطر يتهدد طريق القوافل التجارية ،هو ندرة الماء أو انعدامه بالمرة رغم قطع المسافات الطوال . وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن دور الماء في الرحلة الصحراوية.

المحور الثاني :دور الماء في الرحلة الصحراوية في العصر الوسيط:

نستهل هذا المحور بما أورده ابن حوقل " وبين المغرب والبلدان التي قدمت ذكرها وبلد السودان مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه متعذرة المراعي ، لاتسلك إلا في الشتاء. وسالكها في حينه متصل السفر دائم الورود والصدر "[20] ولهذه الندرة في المياه وأهميتها القصوى يمكن التجار، القبائل الرحل من الطعام والمؤن والمال مقابل الظفر بقليل من الماء[21] حيث تستحيل الحياة في الصحراء إن لم يتوفر للمرء قدر معلوم من الماء للبقاء على قيد الحياة[22] ولاشك في أن عابري الفيافي عانوا من ندرة الماء ؛وعاركوا شبح الموت عطشا . وهذا ما يفسر حمل الماء على جمال مخصصة لذلك الغرض [23] فالتجهيز للرحلة يقتضي عدم نسيان الماء ؛وكذلك الدلو لسقي الإبل عند الوصول إلى نقط الماء[24] وقد يحدث ويشرب الرحل أو التجار من ماء فاسد "فتتغير أمزجتهم ويسقمون .خصوصا من لم يتقدم له عادة شربه . حتى يصلوا إلى غانة بعد مشاق عظيمة ...ويستكثرون من حمل المياه ...فيمرون بطريقهم على صحاري فيها رياح السموم التي تنشف المياه داخل الأسقية فيتحيلون بحمل الماء فيها ليرمقوابه وذلك أنهم يستصحبون جمالا خالية لا أوقار عليها يعطشونها قبل ورودهم على الماء نهارا وليلا ثم يسقونها نهلا وعللا إلى أن تمتلئ أجوافها ثم تسوقها الحداة فإذا نشف ما في أسقيتهم واحتاجوا إلى الماء نحروا جملا وترمقوا بما في بطنه وأسرعوا السير حتى إذا وردوا مياها أخر ملأوا منها أسقيتهم "[25] ولعل ما أورده الحموي يدل دلالة واضحة على القيمة التي يحتلها الماء عند مرتادي الصحراء والفيافي وما كان يشكله في ذهنية وسيكولوجية عامة من يقطعون الصحاري .وهذا ما دفعهم إلى التفكير في مثل ما ذكره الحموي من شرب الماء من الابل بعد نحرها . حقا الحاجة أم الاختراع. وعن الماء يقول ابن بطوطة :" ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتي عهدنا . وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسري الليل كله وننزل عند الصباح . وتأتي رجال من مسوفة وبردامة وغيرهم بأحمال الماء للبيع"[26] والقوافل دائما تتبع نقط الماء الضروري للحياة . ومتى تم العثور على الماء يردد أصحاب القافلة أشعارا تعبيرا عن فرحهم[27] . وقد ينشأ صراع على الماء بين أهالي الصحراء أو الطوارق وبين أصحاب القوافل التجارية وعن هذا يقول البكري " وبهذا الماء يجتمع جميع طرق السودان وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق ويتخذونه مرصدا لهم لعلمهم بإفضاء الطرق إليه وحاجة الناس إلى الماء فيه " [28] لذلك فكر أهالي المناطق الصحراوية بتنظيم الاستفادة من الماء عن طريق

الخطارات والنواعير لمقاومة أثر الجفاف والتصحر[29] وقد يضطر أعضاء القافلة إلى شرب ماء مالح شديد الملوحة زيادة على طروق مسالك طويلة وصعبة لتتبع نقط الماء المالحة [30] وعن الحفاظ على الماء كثروة لا تقاس بمال يقول ابن بطوطة " ثم وصلنا إلى تاسرهلا ...وهي أحساء ماء ، تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون أسقيتهم ويملأونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح ، ومن هنالك يبعث التكشيف".[31]

وهذا لا يترك مجالا للشك الاهمية الكبرى التي احتلها حمل الماء والحصول عليه في نفسية أصحاب القوافل التجارية ومرتادي الصحراء بشكل عام.

ولكن ماذا عن وسيلة التنقل ؟ماذا عن الجمل ؟ وما أبرز خصائصه البيولوجية والفيزيولوجية ؟ وما دوره في الصحراء ؟

المحور الثالث:دابة الجمل من الناحية البيولوجية والفيزيولوجية والوظائفية خلال العصر الوسيط:

أول قضية تثار عند الحديث تاريخيا عن الجمل وهي تاريخ ظهوره في العالم بشكل عام أوفي الصحراء الكبرى بشكل خاص : وفي هذا عارض د. عبد الله العروي أقوال المستشرقين كستيفان غزيل Gsell وتخريجات كل من كورتو Courtois وغوتية Coutier عن علاقة روما بالبربر ودفعتهم إلى الصحراء فدفعوا معهم الاثيوبيين في تعبير هيرودوت الذين لم يعمروا المنطقة إلا في القرن الأول للميلاد .وهؤلاء يقولون بأن الجمل هو الذي أوجد البدو الرحل وأن البدو الرحل دخلاء لا محالة بقوله " قد يكون الجمل موجودا في تخوم الصحراء دون أن تدعو الحاجة إلى استعماله .إن البداوة بالأساس نظام اجتماعي وليست طبعا لبعض البشر " [32] ليس هناك تحديد زمني – علمي دقيق عن تاريخ ظهور الجمل في الصحراء الكبرى ؛وإن كان العثور على بعض العظام بين بقايا العصر الحجري القديم إلا انه لم يرد ذكر الجمل في النصوص أو الآثار المصرية القديمة أو في الأدب الاغريقي القديم .ويستدل البعض على وجود الجمال على الأرض الافريقية بالغنائم الموجود بينها الجمال المتحصل عليها بعد انتصار تابسوس thapsus ceasar على جوبا Juba سنة46 ق.م حليف عدوه بومبي [33] ولا يمكن الاستدلال بهذا على ظهور الجمل في الصحراء الافريقية الكبرى خلال القرن الأول الميلادي لقول بعض الباحثين " كما وأننا لا نقع له قط على تمثيلات في النقائش أو الرسوم التي تعود الى العصر الحجري الحديث " [34]ونظرا للغموض الذي

يكتنف ظهور الجمل واستعماله في الصحراء الكبرى يضيف غابرييل كامب " ولا نزال إلى اليوم نرى النقائش في الصحراء تصور جمالين من البربر المستعربة قد تسلحوا بالحراب والبنادق ولا يظهر عليها مزارعو الواحات السود ، وهم الذين يمثلون ثمانية أعشار سكان الصحراء "[35].

غير أنه ومهما يكن من أمر ؛ فبفضل الجمل بعد ظهوره في الصحراء الافريقية الكبرى "استطاع الإنسان أن يخرق الصحراء ويجعلها بحرا داخليا " [36] ذلك الحيوان الذي جعل للصحراء مسالك مطروقة وسهل الاتصال بين شمال وجنوب القارة الافريقية ؛ وهو الحيوان الوحيد المؤهل لتحمل ظروف الصحراء الصعبة والرحلة التي تقصد السودان الغربي[37].

لذلك نتساءل عن بيولوجية وفيزيولوجية ووظائفية الجمل في الصحراء .

لقد أسهب الكثير من الدارسين في الحديث عن أنواع الجمال وأقسامها اعتمادا على السنام الذي على ظهرها وأيضا من خلال شكلها [38] أما عن استعمالات الجمل فقد اتخذ بمثابة عربة عسكرية حربية ؛ حيث لم يترك للخصم من اختيار سوى الاستسلام [39] زيادة على أنه وسيلة للتنقل ومصدر لعيش البدو الرحل حيث يعيشون على ألبانها الطرية والصحية ذات الفوائد العظيمة ، وعلى لحومها ووبرها الذي يستخدم في صناعة الملابس والخيام [40] والجمل يتكيف مع حرارة الصحراء ورمالها الحارقة نظرا لان جسمه وتركيبته الفيزيولوجية تؤهله لذلك . فهو يتحمل الجوع والعطش لعدة أيام ويستطيع حمل أثقال كبيرة والسير لمسافات طويلة ويبقى لمدة ثمانية أيام كاملة بلا ماء ولا طعام في بيئة درجة حرارتها 50 درجة مئوية وخلال هذه المدة يفقد حوالي 22 كيلوغرام من وزنه [41]وتتضارب الحقائق عن الوزن الذي باستطاعته حمله والمسافات التي يقطعها في اليوم الواحد . فقد يسير طيلة 25 أو 30 كيلومتر في اليوم الواحد وقد يحمل حمولة تتراوح بين 125و 150kg ؛ويبقى 15 يوما دون أن يشرب ولا يتأذى [42].

والجلد الموجود أسفل باطن أقدامها فسميك جدا ؛ وبالتالي فهو يساعد الجمل على الوقاية من حرارة الرمال الحارقة ويتحمل حرارة تصل درجتها إلى 70 مئوية وبرودة تصل إلى 52 مئوية تحت الصفر[43] ويتغدى الجمل على مخزونه المخزن في سنامه حيث وبعد رحلة طويلة وشاقة يفقد السنام الذي على ظهره [44]

ومهما يكن من أمر؛ لا يمكن للإنسان الصحراوي إنكار فضل الجمل عليه في طروق مسالك الصحراء الوعرة في قديم وحديث واستعمالاته المتعددة ووظائفه السامية وتدفعنا و بقوة إلى تقدير

وظيفية الجمل في الصحراء كوسيلة لتنقل القوافل التجارية وعبورها الفيافي والمفاوز الموحشة والمقفرة خلال العصر الوسيط .

ومن خلال محاور البحث يمكن الخروج بعديد الاستنتاجات والخلاصات :

*أهمية كتب المسالك والممالك (الرحلات) في التعريف بكل ما يرتبط بالصحراء من مواضيع مختلفة تأتي عرضا في وصف الطرق والأقاليم والمناطق التي يزورها الرحالة المؤلف.

*صعوبة المسالك ووعورتها وقساوة المناخ في الصحراء تزيد من حدة يقظة وذكاء ودهاء الدليل؛ الذي تعول عليه القافلة في طروق خبايا ومخاوف الصحراء المتعددة والمختلفة.

* الماء كتر لا يقدر بثمن ؛ ضروري وأساسي يستلزم الرحلة الصحراوية عند الإعداد للرحلة وأثناء طروق الصحراء والبحث عن نقط الماء وصعوبة ذلك.

*التأريخ لظهور الجمل يبقى أمرا غامضا وصعب الولوج؛ لغياب الأدلة الحاسمة .وهو أمر شائك بالنسبة للدارسين والمتخصصين في

حقل الاركيولوجيا والتاريخ وحقول كثيرة.

*يكتسي الجمل أهمية بالغة لأنه وسيلة التنقل الوحيدة في الصحراء حتى أضحى ينعت "بسفينة الصحراء" والمصادر أبانت عن دوره وأهميته المتعددة الأوجه في مسرح أحداث الصحراء الكبرى .

وإن كان البحث قد بسط جزءا من النقاش الدائر بخصوص الرحلة الصحراوية نأمل ان تبسط الكتابات وتمتد لتشمل الحياة الاجتماعية لسكان الصحراء الاهالي المقيمين في البيئة الصحراوية خلال العصر الوسيط على جميع المجالات بما فيها العادات والتقاليد والادب الصحراوي .

هوامش البحث

-1www.almaany.com/ar/dict/ar-ar /
صحراء(تاريخ الإطلاع :15-03-2016)

2- عبد الكريم كريم ،المغرب في عهد الدولة السعدية ،ط3. منشورات جمعية المؤرخين المغاربة ،الرباط 2006،ص:.145

3- ماجدة كريمي ،تجارة القوافل آثار وبصمات على تاريخ دول المغرب الوسيط ،ط1،دار نشر الجسور . 1996(هامش ص:8)

4- ابراهيم محمد احمد بلولة ، الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الاسلام والحضارة الاسلامية ،دراسات دعوية ،ع9 ،فبراير 2005.ص:.79

5- حمزة يحيى ،ذهب السودان الغربي في أوج استغلاله خلال العصر الوسيط الموطن والعلاقة مع المغرب الأقصى /موقع بوابة تاريخ المغرب /www.maroc-histoire.net نشر بتاريخ 01-03-2016

- وأيضا التجارة الصحراوية المغربية السودانية نموذج: تجارة الذهب خلال القرن السادس الهجري ،بحث لنيل الاجازة في التاريخ ،كلية الآداب وع.ا.مكناس.2007

6- " التبر : بلاد من بلاد السودان تعرف ببلاد التبر، وإليها ينسب الذهب الخالص، وهي في جنوب المغرب تسافر التجار من سجلماسة

إلى مدينة في حدود السودان يقال لها غانة" – ابي عبد الله ياقوت الحموي ،معجم البلدان،م2؛دار صادر- بيروت (د.ت)ص:12
7- ابراهيم محمد احمد بلولة م. س ص:.67
8- غابرييل كامب ،البربر ذاكرة وهوية، ترجمة ع الرحيم حزل ، مطابع افريقيا الشرقية ، 2014 ص: .163
9- نفسه ،ص:.104
10- الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية والمغرب ،تقديم وتحقيق وتعليق ،د.محمد زينهم محمد عزب ط1، 1994،دار الفرحاني للنشر والتوزيع.ص:.19
11-ماجدة كريمي. م. س، ص ص :19-.20
12-ابراهيم محمد احمد بلولة .م.س ، ص : .75
13- ابن بطوطة ،تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ،قدم له وحققه محمد عبد المنعم العريان وراجعه وأعد فهارسه ، مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم ، ج1، ط1 ،1987ص:.688
-14Eugène Daumas .Legrand désert Itinéraire d'une caravane du sahara au pays des Nègres,paris,1848,pp1-2-3.
15-الحميري ،الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان، ط2؛ بيروت 1984، ص: 146.
16- ماجدة كريمي .م. س ،ص :15 .
17- نفسه، ص ص : 16 - 17.
18-أبي عبيد الله البكري ، المسالك والممالك ،حققه ووضع فهارسه د. جمال طلبة ،.ج ؛2.دار الكتب العلمية ،ط1، بيروت 2003 ص :.182
19- أحمد أبو زيد ، قصة الصحراء ،مجلة عالم الفكر ، م17،ع3؛ اكتوبر- نوفمبر- ديسمبر 1986.ص :.12
20- ابن حوقل ، صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة ،بيروت – لبنان 1992.ص :12.
21-ماجدة كريمي.م.س.ص :.17
22-أحمد أبو زيد .م. س ،ص ص :12-.13
23-عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6-8ه/12-14م) ،دار الطليعة ، بيروت،ط1،أغسطس2008.ص :.171
24- Eugène Daumas ,op.ci, p 9
25- ياقوت الحموي .م. س، ص :12/ عبد الهادي البياض.م.س.ص:.172
26- ابن بطوطة. م. س، ص: .689
-27Eugène Daumas ,op.cit,.p30
28- البكري م. س. ص: .343
29-عبد الهادي البياض .م. س. ص: .170
30- حسن حافظي علوي ،سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي ،مطبعة الفضالة ، 1997.ص ص: 352-353-.354
31- ابن بطوطة م.س ،ص :.688
32- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، مطابع افريقيا الشرق ،ج1،الدار البيضاء (د.ت) ص:.99
33أحمد أبو زيد. م. س، ص ص : 10-.11
* غابرييل كامب يورد رواية أخرى تفيد باستيلاء قيصر على خمسين من الجمال كانت تخص الملك النوميدي يوبا الاول . غابرييل كامب، م. س، ص :.164
34- نفسه ، ن. ص.
35- نفسه، ص:.102
36- عبد الله العروي م. س .ص :98 .
37- ماجدة كريمي ،م.س.ص:.9
-38Fournel Marc , La Tripolitaine, les routes du soudain, paris 1887,p 123 / وأيضا
:ابراهيم العثيم ،لمحة عن الابل في الجزيرة العربية ، مجلة الخطاب الثقافي – تراثيات ، ع1 /عن موقع
Faculty.ksu.ed.sa/huyailan/ publication/
الابل.doc(تاريخ الاطلاع 13-03-16)

39- بوفيل ،تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير،ط2؛منقحة ومزيدة. بقلم روبن هاليت ، ترجمة د. الهادي ابو لقمة ، د محمد عزيز، 1988 منشورات جامعة قار يونس بنغازي ص: 6.

40- ابراهيم العثيم .م. س.

41-فيديو لهارون يحيى / الجمل عن موقع :

www.ust.edu/open/Library/other/52/.../doc/الجمل(تاريخ الاطلاع 12-03-16).

42- ماجدة كريمي م. س. ص ص :9 -10

* أورد فورنيل أنه قد يحمل 250 كلغ ،وقد يقطع ثلاث كيلومترات في الساعة في المتوسط ويتم الاعتماد على عدة جمال لتعويض المتعبة وإراحتها وتعويض الميتة وتحدث عن مكوت الجمل أربعة أيام دون ماء .

Fournel.Marc.op.cit,p126-

43- هارون يحيى فيديو م.س./

Fournel Marc ,op.cit, p127.

44- ماجدة كريمي .م. س ،ص: 10.

التاريخ البحري

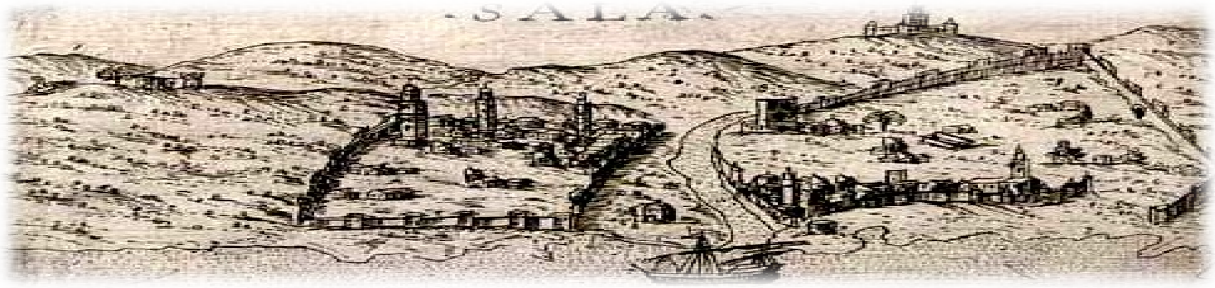

القرصنة المتأخرة بالمغرب قراءة من منظور جديد

عمر عمالكي

باحث في التاريخ المعاصر

صحيح أن القرصنة شكلت أحد المواضيع المثيرة والمستعصية في تاريخ المجالات البحرية العالمية لامتداداتها الطويلة،وتعد من جهة أخرى مادة دسمة للدراسات العلمية والندوات التاريخية المتنوعة. وربما لم تكن القرصنة فوق هذا أو ذاك مجرد تاريخ هامشي أغلقت صفحاته مع مجيء الدولة الحديثة؛بل هي- كما يبدو- واقع حي ملموس على الرغم مما ذكر في موسوعة "بروكهاوس وإفرون" الصادرة في القرن التاسع عشر وسمته في أحد مقالاتها ب" النهب البحري أو القرصنة" وذكرت أنها: " ليست موجودة تقريبا في الوقت الحالي" إشارة منه إلى انتهاء عصر القرصنة. لكن الحقيقة المسجلة حديثا وفي التاريخ الراهن هو انتعاش فرق القرصان الذي يرافق فشل الدول سياسيا وانعدام سلطة

قادرة على تسيير دواليب الفضاء البحري كما هو حال سواحل الصومال وعدن في القرن الواحد والعشرين.

وبالعودة إلى مظاهر القرصنة البحرية بالسواحل المغربية ـــ خاصة الشمال الغربي ـــ نواحي طنجة[63]، نسجل رغم من تضارب الأخبار والتأويلات نوعا من النشاط القرصني الذي فرض لعدة منطلقات يمكن تحديدها في المعطى الجيوستراتيجية لهذه المناطق والمدن التي تتمتع بنصيب من التسيير الخاضع للقرب من العقلية الاوربية هذا المعطى يمنحها أهمية خاصة ومفيدة لتناول وتحليل الدور الجغرافي/ المكاني للمشكلات الاقتصادية والسياسية والسكانية المؤثرة في صناعة القرار السياسي أو الوزن الاقتصادي وعلاقات البلد الخارجية. وإن إحاطة المغرب بقوى سياسية مؤثرة تشكل مصدر خطر على كياناته السياسية سواء من ناحية الموقع الجغرافي و تموضع قوى استراتيجية بحرية بجواره والرامية إلى السيطرة على المنافذ البحرية و مياهه الإقليمية أو على مستوى التجهيزات والأساطيل المتمركزة في البحار وما تشكله من قلق وخطر دائمين لصناع القرار في البلد. وتأتي الأهمية الجيوستراتيجية لمدينة الميناء بطنجة بعد غليان المنطقة حيث ازدياد الأطماع الخارجية ووجود صراع حضاري فضلا عن مضايق إستراتيجية تتحكم بالتجارة العالمية وسبل الاتصال بين الشرق والغرب والشمال والجنوب

لماذا القرصنة؟

موضوع القرصنة المتأخرة تكتنفه العديد من الصعوبات البحثية والتوثيقية، وصعوبات منهجية مستقلة لم يكن عندنا منها إلا القليل، تأليفا وترجمة على الرغم من أن تاريخنا مليء بالعبر البحرية والأعمال ذات الصبغة القرصنية الوازنة بما هو حقيقي مضبوط وخيالي مشوق مبالغ فيه، وهذا في حد ذاته يساعد في فهم نشأة العديد من المناطق البحرية مغربيا ومغاربيا. كمجالات ترك بها (النهب) البحري بصمات واضحة، مما يدفع لمزيد نبش وسبر أغوار الماضي لفهم أفضل للظاهرة. ولطفو الأحداث سياقات ومساقات فكل البحار كانت مسرح أساطيل القراصنة حتى قيل أنها "هنا وهناك ترسل بالتحية إلى السفن التي تلتقي بها" و لم تستثن منه بحيرة ولا ضفة معمورة[64]، أو حضارة دون أخرى.

---

[63]) خصصت فصلا طويلا في الاطروحة التي اشتغلت حولها في موضوع " ميناء طنجة" في وحدة البحث والتكوين [جامعة محمد الخامس .كلية الآداب أكدال]عن الحديث عن القرصنة أو الجهاد البحري مشروع لم يكتمل في القسم الثالث من الاطروحة .

[64]) مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد الدراج، طبع شركة الاصالة للنشر والتوزيع، الجزائر 2010، ص 2 .10.

ولكن دراسة تاريخ القرصنة تعتريه نقائص عدة كما سلف الذكر، لا يمكن حصرها في فراغات الأرشيف الخاص ومذكرات القرصان المبتورة التي يستند عليها الباحث نظرا إلى كون الكتابة انطلاقا من السير الذاتية للبحارة القرصان لم تكن نشاطا محببا، كما أن رسم مظهرا لهؤلاء وتخيل حياة مجتمع القراصنة أمر تكتنفه صعوبات كثيرة،ولهذا فإن البحوث الجادة شحيحة.

ما معنى القرصنة؟ من الناحية اللغوية لفظة دخيلة على العربية، من لفظ فرنسي كورسcourse بمعنى الجري والسرعة وتطلق على الأسطول البحري أو من كلمة Plibustiers[65]، الكلمة الانجليزية التي تعني محصل الغنائم بالاستيلاء على بضائع التجار. ويراد بها الهجوم على سفن معينة وأخذها، أو قطع الطريق ونهب ما بها واستباحتها. ويراد بالقرصنة كل البحارة والنوتية والجنود الذين يمتهنون الإغارة على شواطئ وسفن دول أخرى[66] والقريص آلة ومرساة السفينة بتعبير الأب دان في تاريخ الدول البربرية وقراصنتها، وعند جانيل Jeannel في كتابهLa Piraterie تميز بين القرصنة واللصوصية البحرية يقول:Pirata لصوص البحر الذين ينتمون إلى حكومة معينة ويقطعون طرق المواصلات البحرية يأخذون كل سفينة غصبا؛ كما هو شأن لصوص الطرق والمحاربين في البحر[67] كما أن مفردة القرصان تعني مجموعة من السفن تابعة للحكومة تعمل بإذنها ضد سفن دولة تكون معها في حالة حرب. واللصوصية Pirate تعني من يعمل لنفسه خارج إذن حكومته ويسيطر على كل سفن محاربة أو مسالمة.

القرصنة أو الجهاد البحري في أفق مفهمته واصطلاحيته، ليس بعمل انتقامي وغريزة النهب عند الأفارقة أو تعطش للدماء كما تصفه المرجعية الأيبيرية. بل هو مغامرة ليس لها في الغالب وطن ولا دين. فهي وسيلة للعيش لا تهتم بالأشخاص ولا بالجنس ولا بالعقيدة[68] وهي عملية جهادية للدفاع عن حوزة الأوطان والثأر[69] وصراع الفقراء ضد الأغنياء[70] وأيضا هي مقابلة العدوان بمثله لحماية الثغور الإسلامية المغربية[71] ووسيلة للضغط والاغتناء والتزود بالضروري الغائب.

---

[65]) Encyclopédie, objectif 2000.N°2. Edition des Connaissances Modernes,s,a.1973,p p.20-21

[66])Voir M'barek Zaki. Définition de La Course Maritime. Annexe III. In **Le Maroc et La Méditerranée**. Edition Okad.Rabat 2003.univesité M 5. institut recherche Scientifique .p275.

[67]) Jeannel ; **La Piraterie**, Edition, Paris 1903,p85.

[68]) Braudel (f) **La Méditerranée**. Op cit.p192.

[69]) محمد حجي، **الزاوية الدلائية**،م س، ص174.

[70]) عبد المجيد القدوري، **ابن أبي محلي**،م س، ص 84.

[71]) محمد المختار السوسي،**أليغ قديما وحديثا**،المطبعة الملكية الرباط1960 ، ص167.

راودت الدول الأوربية بعد تغلبها على البحر رغبة إنهاء القرصنة في محاولات عدة، سواء في اتفاقية 1489 بين فرنسا وإسبانيا أو معاهدة 1518 بين فرنسا وانجلترا، إلى أن انتهت بحرب القرم بين الإمبراطورية العثمانية وروسيا التي وقعت أطوارها سنة 1856م، حيث تكاثفت معظم الدول الأوربية في القضاء عليها[72].

شكل المغرب في نظر وسط مؤرخي البحار قبلة ممارسة القرصنة واللصوصية، ويظهر هذا في ندوة دولية حول التاريخ البحري بسان فرانسيسكو1975م؛ والتي سجلت غياب الأنشطة البحرية في المغرب إلا ما كان من القرصنة البحرية، وهذه النظرة الضيقة اتجاه المغرب ما هي الا ترديد لصدى القرصنة السلاوية التي ظلت عالقة في الاذهان الاوربية. وغالبا ما ينبري مختص في القرصنة المتوسطية بإسقاطاته على أحداث الأطلنتي مع وجود فوارق بين المجالين. لكن السؤال المطروح هو هل هناك تنظيم للقرصنة الرسمية والخاصة[73]؟ غير أن القرصنة المغربية نفسها "عرفت تطورات ومراحل مختلفة في بنيتها"[74]. لكن الشاهد على هذه هو السوق المنتصبة لافتكاك الاسرى ومردوديتها التي تعود بأموال طائلة للوسطاء والتي يجب أن ينكب البحث حول فعاليتها، فهل حضر هذا النشاط في قلب العملية التنظيمية للمراسي؟ هل هو نشاط مندمج رسمي أم هو هامشي فردي تطوعي؟ من يدبره ولصالح من تتم هذه العمليات؟ ما موقف سلطات الميناء منها؟ لماذا تراجع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وما دوافعه وأسبابه؟

لقد تسنى للقراصنة أن يرفضوا مبادئ العصر وتقاليده التي بدأت راكدة بعيدا عن كل تغيير، كما تسنى لهم أن يسقطوا تلك الغمامة التي أصبح أفق الناس بسببها ضيقا محدودا، استطاع القراصنة المطرودون النازحون من مختلف شرائح طبقات المجتمع أن يروا الحواجز التي فرضتها الأعراف الاجتماعية تنهار، فقد كان من بينهم متعلمون وآخرون من سافلة المجتمع، ضباط ملكيون وبحارة وموظفون عملوا فيما مضى في إدارة الأسطول البحري[75]. ولصوص نكرة تواءموا جميعا على ظهر سفينة واحدة. بذلك تحقق الالتحام الوثيق وسط هؤلاء الذين انحصرت مهمتهم في أخذ كل سفينة غصبا، ولعله لم توجد في تلك العصور جماعة تقاربت فيما بينها بمثل هذه القوة مثل طاقم سفينة

---

[72]) عمر عمالكي، القرصنة أو الجهاد البحري مشروع لم يكتمل، فصل من القسم الثالث، في أطروحتنا : ميناء طنجة 1684-1856رصد التغييرات على الأنشطة البحرية، جامعة محمد الخامس الرباط. المغرب.

[73]) القرصنة الرسمية أو التابعة للدولة يطلق عليها اسم الشرطة وأما الخاصة فيكونها أفراد وقد تطورت القرصنتين من التباعد إلى التكامل عبر فترات من تاريخ المغرب

[74]) Miege (J-l) **pour une méthode** ;op cit ;p27.

[75]) يتحدث عبد القادر زبادة، في مقدمة ترجمة كتاب، وليم سبنسر الامريكي عن ،الجزائر في عهد رياس البحر، دار القصبة للنشر، الجزائر .عن كون الكفاءة والشجاعة في أمور البحر عنصر ترقي اجتماعي لكل الفئات التي تصل إلى درجة امير البحر .ص 14.

القراصنة. إن النجاح المشترك هنا بل والحياة ذاتها، كانا وقفا على شجاعة وانضباط كل فرد من أفراد هذه الجماعة[76]. ولهذا فقد كان على كل من يدخل في عداد تنظيم كبير مثل هذا أن يوقع على ميثاقها ولو بمجرد رسم أو وشم. أو أداء القسم في الوقت نفسه ويقوم بتقبيل يد الزعيم. وأما المساواة وحرية التعبير عن الآراء فكانت تمثل المبادئ الأساسية لهذا التنظيم. "فالقبطان لا يملك اختيار الطرق التي ستسلكه السفينة أو يحدد هدف الإغارة إلا بموافقة الجماعة أما الأسلاب والغنائم فقد كان يتم تقسيمها وفقا لنظام صارم تم إقراره"[77]

كان شعار القراصنة "إننا لا نخضع للقوانين(...)لأنها وضعت للأغنياء لكي يسرقوا تحت حمايتها الفقراء(...) إننا نسرق الأغنياء تحمينا شجاعتنا فقط"[78]. لكن منطلق البحرية الاسلامية إنما يكون لدواعي تأطرها العقيدة"جهاد" ومناصرة الاخوة الدينية في المجمل[79]

تشكلت بين القرن الخامس عشر والتاسع عشر، في كثير من أنحاء عالم المحيط الأطلسي سلوكات ملاحية، ونظم حضارية أرخت بظلالها على تاريخ هذه المنطقة وصبغتها بطابعها المتغير، ولكنها رغم التنوع والاختلاف فقد حافظت على علاقات وثيقة مع منطقة البحر الأبيض المتوسط. تكمن خصوصية تاريخ هذه الحركية في شقها القرصني، ولكن كلما عمقنا النظر إلا ووجدنا تناسقا ومساقات أطول لهذه الظاهرة، التي يمكن تحديدها في ترابط الظواهر التاريخية الكبرى الثلاث، حيث لا يمكن العثور على مكان آخر لعبور الاستعمار الأوروبي، وتأمين تجارة الرقيق و الصراع الحضاري(الديني) إلا بهذه الأنشطة وتداعياتها. وقد أدى هذا التعايش إلى ولادة شركات جديدة، تختلف عن الشركات الأصلية، وأنتجت أيضا تغييرات أكثر عمقا في عقلية "المحاربين القدامى" الذين اندمجوا في عمق ديناميات الأطلنتي حتى منتصف القرن التاسع عشر لما رام الأوروبيون حقا استعمار إفريقيا.

ولمعرفة مدى تأثيرها على هذه التغييرات على التدابير المينائية والسياسة البحرية، إذ لا حدود ثابتة تبرز أهمية القرصنة في عمق المحيط الأطلنتي وفي مناطق مختلفة بهندستها الجغرافية وأبعادها الاجتماعية. حيث يتسم المحيط بصعوبة الإبحار لأمهر البحارة كما يقول فالونتين فردناندز valentine Fernandez:"إن البرتغاليين لم يستطيعوا تجاوز رأس نون في تجارتهم وأطلقوا عليه رأس نون عندما

---

[76]) عمر عمالكي انظر القسم الثالث من أطروحة ، ميناء طنجة، م س.

[77]) ياتسيك ماخوفسكي، تاريخ القرصنة في العالم، ترجمة أنور محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب2008،الإسكندرية ، ص8.

[78]) تشارلز جونسون، التاريخ العام للنهب والقتل، لندن1720. (ويرصد من خلاله أشهر ما قام به القراصنة ومغامراتهم التي عدت بطولات وكذلك طباعهم ونظامهم وقيادتهم منذ بداية القرصنة وظهورهم في جزيرة العناية الإلهية وحتى الآن).

[79]) وليم سبنسر ، الجزائر في عهد رياس البحر، م س، ص 11.

فشلوا في عبوره عدة مرات"[80].وإن تأثير القرصنة على الاقتصاديات الأوروبية والإفريقية الاطلنتية على حد سواء، فضلا عن ظروف وآثار تسويق المنتجات المحصل عليها، واضح لوجود شبكة معقدة من الدوائر التجارية على مستويات مختلفة؛ كالتهريب والنخاسة، يسهم فيه بشكل أعقد التنافس والتعاون بين رياس الدول المغاربية حول الغنائم البشرية وصيد الرؤوس الادمية، علاوة على عائدات الأسرى والحرب والتجارة. وهذه كلها إنما اعتبرت وسيلة لإعادة التوازن بين القوى التجارية والمالية وتعيد صياغة خرائط التقسيم على أساس المجهود الاستعماري. أما بالنسبة للقلق الاجتماعي والثقافي الذي يرافقها، ولا سيما الهجرة والتنقل للأغراض الدينية ومشاريع التسوية من قبل التجار والممونين وأرباب السفن والرياس وإنشاء الشركات المختلطة في هذه المنطقة.

يبدو قمينا للاهتمام أيضا أن تنظر في "عالم القرصنة من جديد" كمسافة وكنموذج التجارب الاجتماعية التي برزت لإعادة التفكير في العمل وتقارير عن التراتبية والعرق والملاك وإلى التفكير في طبيعة العلاقات السياسية بين أوروبا وأفريقيا من خلال عالم المحيط الأطلسي. عوامل كلها شجعت البحارة والربابنة على خلق شراكة بين المدينة ومحيطها المائي واستدماجهما. لقد انشغل الأوربيون بالانفراد والاستفادة من موقعها لتفادي الحاجة كلما اندلعت المعارك بين هذه الدول. وسجل على المغرب اهتمامه بشأن القرصنة وافتداء تجاره وبحارته حتى بلغ صيته الأفاق وطمع في نواله كل رعايا البلاد الإسلامية[81] لإفتداءهم من الأسر[82].

علما أن المناخ الفكري والبنية المجتمعية تمنح صفة السمو وصبغة المنقذ المجاهد للقرصان الذي يعد رمزا للافتخار من المنظور الديني كلما ابتعد عن السرقة والاغتصاب.وإنها مناسبة لإعادة النظر في مفاهيم القرصنة والاستعمار، والنظر في تغييرات الأشكال والنظم السياسية والتجارة والأسر[83]، وحركية المرسى في المدينة نتيجة لاندماجها في أنشطة الأطلسي.

تبرير مهنة القرصنة أو تصورها في قالب مثالي ككل مرفوض أو مقبول ليس من مهمة المؤرخ، إلا أنه لا يمكن في الوقت ذاته أن ننكر أنها كانت في بعض الأحيان شكلا من أشكال الاحتجاج. خروجا من مجتمع قائم على الظلم أو تنظمه علاقات تعسفية وتتحكم فيه بشكل صارم

---

[80]) **Miege, Maroc et l'europe1822-1906, t5. Edition la Port. Rabat. Maroc.1992.p42.**

[81]) رسالة استعطاف واستنجاد أسير تونسي بسجون فرنسا بالسلطان مولاي إسماعيل.انظر وثائق المديرية الملكية للوثائق حسان الرباط

[82]) أنظر الملحق رقم 1 في عملنا ،ميناء طنجة ، م س. من الصفحة 371إلى 400.

[83]) Louis Chénier, La correspondance du consul louis Chénier. paris 1974, volume II, P616.

مؤسسات جائرة...وقد كانت القرصنة في أحيان أخرى مرتبطة أيضا لا مجرد كونها احتجاجا اجتماعيا، وإنما بالسعي لتحقيق نظام اجتماعي جديد وفقا لأفضل مُثل ذلك الزمن[84]

القرصنة المتأخرة بطنجة المغربية:

شكلت القرصنة أحد العوامل التي كرست الوجود الأوربي بسواحل المغرب أو اتخذت القضية ثغرة للتوسع الأوربي منذ قرون فقد كان احتلال بعض الثغور المغربية أساس المواجهة "كما تؤكد تقارير السفراء ورحلاتهم...وكانت هذه الثغور عبارة عن قلعات عسكرية شبه معزولة لأن التحركات فيها ومن خلالها كانت موجودة ومراقبة".[85]

بالرجوع إلى أهمية النشاط القرصني بطنجة نسجل اهتمام السلاطين ورياسهم بمحاصيل الفداء والافتكاك، فما يظهر من الوثائق التي جعلته يبدو كمواسم وأسواق مثمرة " الفداء" رأسا برأس عند وجود الأسرى بين الطرفين، وجعلت للبقية ثمنا عن كل رأس "مائة ريال اصبنيولي"[86] دون أي اعتبار للوضعية الاجتماعية "لا يعتبر فيهم غنى ولا فقر ولا مرتبة وجاه"[87] وأثرت في هذا النشاط الدوافع والخلفيات سرعان ما تطورات محليا وإقليميا دوليا.

ويقوم القراصنة بتصيد السفن الأوربية المنفردة عند فترات الرواح أو غياب القوة الريحية واثناء هدوء البحر، أو انعدام القوة الدافعة للآليات الشراعية التي تزاوج بين الشراع والتجديف[88]، ولكن بعدما يتأكد جل الرياس المحترفون للقرصنة من نوعية تسليحها فيتم الهجوم عليها مع التمويه برفع أعلام لدول متعددة أو بيضاء[89]،أو معرفة أن الطاقم كله من المتمردين[90]. علما أن السفن القرصنة المغاربة من النوع التالي:

*الشيبيك chébecs أو من * شالوب chaloupes

ويعزز هذا النشاط بمباركة السلطان الذي يعتبر هو الملك الوحيد للمنطقة التي يتم الأسرى فيها ملكية نافذة خالصة، وقد أشارت الاستاذة ليلى مزيان إلى أن قيمة بيع الأسرى بمكناس وصل حوالي

---

[84] ياتسيك ماخوفسكي، تاريخ القرصنة في العالم، ترجمة أنور محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب2008،الإسكندرية، ص7.

[85] أنظر عبد المجيد القدوري ، سفراء مغاربة في أوربا 1620-1922، منشورات كلية الآداب الرباط المغرب، 1994. ص221.

[86] قضية العملة المغربية ونظيرها الاسباني، ملحق أطروحتنا، ميناء طنجة 1684-1856.م س،من الصفحة 370 وما بعدها. والعربي اكنينح،**الأزمة المالية ومسالة النقود في فاس والبادية المجاورة في القرن 19م** ،مجلة امل ع 3 س1 1993.(من 47ص الى 67) ص64. الملحق.

[87] الفصل الثاني من الاتفاقية المغربية مع جنوة المنعقدة في 10 شتنبر1777.

[88] محمد المنوني ، **مجلة دعوة الحق**، العدد 4 مارس1969، ومشاركة المغرب في الجهاد ضد الأمريكيين في ليبيا.اعتبر أن الأسطول المغربي له آليتان من آليات الحركة هما الشراع والتجديف.

[89] تستعمل الدول الأوربية هذه الحيل حينما تريد القضاء على القراصنة، كما حدث في قصف الجزائر 1816م، انظر حادثة السنة عند الضعيف ، **تاريخ الدولة السعيدة**، م س ، ص 396.

[90] **في الأسر المغربي** ،م س،ص8/7.

(45) إيكو للرأس الواحد[91]. ولهذا الاعتبار خصص لإيوائهم مركزا بمدينة سلا، وسفنه المستعملة على ثلاث أصناف:

– سفن نصف شراعيةdemi-galéres تصنع من خشب السبينsapin طولها 60 قدم،تتميز بالمرونة والخفة مما يسمح لها بالسفر الطويل.

– الصنف الثاني: غليوطة galiotes أطول من الأولى وتجاوز طاقمها300 رجل لها نفس مكونات الأولى.

– الصنف الثالث:الشيبيك chébecs لها صاريان mâts تستعمل في رحلات الاكتشاف.

وأما الواقع الذي يمثله الأسير من فداءه إلى ترحيله فقصص أخرى،حيث يتم نقل الأسرى المحررين من المدن الساحلية المغربية موكادور(الصويرة) الرباط وسلا، فاس وكلميم ومكناس نحو ميناء طنجة، ليتم تسفيرهم على يد القناصل والسفراء إلى مواطنهم الأصلية بأوربا[92]. يشير الأسير الفرنسي M.follie(1792-1785) إن المغاربة بالصحراء يتبايعون في الأسرى قصد استرقاقهم؛ للقيام بمهام الرعي والأشغال في البيوت والفلاحة، ويكون الأسير عرضة للمقايضة حتى أن ثمن بيع الفرد يكون مقابل 3 من الماعز[93].

وظفت القرصنة في العمل الدبلوماسي المغربي منذ العهد الإسماعيل الذي أصر على مقايضة الأسرى بالبارود الإنجليزي[94]، وهو ما تم قضاؤه وقتها "بسفينة مملوءة بالبارود"[95]. وصادف أن تحكم السلطان محمد بن عبد الله بين 1757و1768 في القرصنة فجعلها أكثرا تعقيدا من ناحية المردودية، فلم يعد للبحّار من دور في إدخال الغنائم البشرية نحو المرسى أو غيرها. وهو أمر حاول من بعده فاعلون كثر تقنينه، واللعب على خطوطه مع الجانب الأوربي الذي أخذ يتفوق كل مرة إلى أن تم القضاء عليها بعقد أوفاق ومعاهدات دبلوماسية. فكان لهذه السياسة دور إيجابي في انطلاق الحركية التجارية السفارية الفرنسية التي تزامنت مع فقدان العثمانيين لشرق المتوسط إثر هزيمتهم في حرب ضد البندقية[96].

---

[91]) Leila Mezian. **Sale et Ses Corsaires**. op cit.p284.

[92]) ibd.p175.

[93]) نفس المصدر، ص 175.

[94]) بعث المولى أسماعيل سفارة محمد قردناش والحاج علي الصبان إلى انجلترا وضمنها قضاء بعض أغراض السلطان 1701م.

[95]) روجرز، ص108.

[96] Panzac **: Les Corsaires Barbaresques** ,op cit.p125.

فأصبحت قضية القرصنة رهينة تجاذبات دولية وقوى خارجية ثم تمردات داخلية وتصرفات محدودة وغير معلنة، إذ حددت طرق الأداء واللقاء البحري والتفتيش. فأضحت القاعدة الوحيدة المعروفة بالمراسى المغربي: تأدية أسعار المنتجات عند الخروج والدخول. فسجلت تدخل المخزن في التجارة بدعوى مراقبة وحماية المصالح الداخلية ومراقبة المبادلات مع الأوربيين، وسجل أزمة النقد1825 بخروج أكثر من ثلاثة ملايين فرنك من البلاد تهريب العملة حسب تقارير قنصل فرنسا بطنجة، ونتيجة الخوف المركب من القرصنة التي ظهرت في شكل مساعدة المغاربة للأمير عبد القادر1832-1839 المواجهة للوجود الفرنسي بالجزائر. ولتحول السيطرة البحرية المحلية بالمغرب وخضوع السياسة التجارية كلية للسلطان الذي انتزع أمر بيع حقوق الجمارك وتخصيص مرسى تعيين المستفاد[97]. ولما عبرت أوربا عن رغبتها في تصفية القرصنة وتطهير الممرات الإستراتيجية من كل مقاومة تحد من سيطرتهم على المحيط الاطلنتي أخذت السفن القرصانية تتضرر تبعا لهذه التحولات. "غير أن المناسبة التي تزامنت مع عهد مولاي سليمان أدت بدون شك إلى نوع من التراجع في العلاقات مع الخارج، دون أن توقفها تماما"[98]

كما حدد السلطان ظروف التعامل والاستغلال المباشر للنشاط البحري بإصدار ظهائر محددة للقرصنة التي تنص على:

- أن السفن المتوفرة على تصريح أو" عندهم بسبرط... فلا يتعرض لهم ولا يفتش[99]".
- استثناء دخول سفن بعض الاجناس للتزود بالحاجيات" بالثمن الجاري بين الناس"[100].

ويبدو أن مهمة الميناء هي القيام بإجراءات التنفيذ المنوطة بالمدينة الساحلية في وقت ظهرت فيه ضغوطات القوى الأوربية والأمريكية، وكان لهذه المهمة العسكرية نتائج وجوانب أماطت اللثام عن القوة المغربية في الميدان البحري، وألزمته بعد مفاوضات طويلة وشاقة،عززها الجانب الأمريكي باستظهار الأسطول ومنع القطع المغربية من الحركة سنة1218ه/ 1803م. إذ ضمت القطع الدفاعية الأمريكية سفينة ضخمة من أربعين مدفعا مصاحبة بدعم من السفن الراسية بالموانئ الأوربية بلغ عددها أربعة. بذريعة تحرير أربعمائة راكب[101]. وهذا العمل العسكري المحموم غير طبيعة الإجراءات

---

[97]) جون لوي ميج، المغرب وأوربا، الجزء الخامس، م س، ص 82.

[98] محمد المنصور ، المغرب في عهد مولاي سليمان، بالانجليزية، م س.

[99]) الشرط الثاني من الاتفاقية المغربية الفرنسية ، **شروط الأجناس**. مديرية الوثائق الملكية الرباط. **(مخطوط رقم د1694)**

[100]) الشرط 4 مع الفنرنسيين، مخطوط شروط الاجناس.

[101]) كان سببا في ظهور الدبلوماسية على عهد سيدي محمد بن عبد الله.ثم أعيدت الكرة في عهد المولى سليمان ودفعته إلى التخلي عن الجهاد البحري.

وكيفية أداء مهمة إنسانية بالمتوسط صورها المؤرخ عبد السلام الضعيف. بأمر الرايس إبراهيم لباريس والطاهر عواد بقبض السفينة الامريكية، ولما شرع الرئيس البحري في تنفيذ الامر الصادر بالأسر في البحر وبالجوار المغاربي بحثا عن الغنائم لكن تأتي الرياح بما لا تشتهيه سفن لباريس لما نجحت عيون التجسس واستنفرت كل قواها بالسواحل الاوربية لينقلب التدبير رأسا على عقب فوقع المغاربة اسرى بيد البحرية الامريكية"[102]. جرت هذه المهمة الوظيفة عكسية على القيادة المغربية لما أريد منها، بما اعتبر عائقا مصلحيا كان وراء تحويل محطة جبل طارق إلى مركز التجسس على المغرب.كما دفع هذا التضييق والحصار على تغليب الدبلوماسية العمودية بقيادة السلطان للتفاوض والتسوية ورد الأسرى، وفداء المغاربة. وتدخلت الدبلوماسية والوساطة الإنجليزية في القضية وكانت أكبر مستفيد منها إذ صرح السلطان بتفردها "كل من أراد من النصارى شيئا عندي فلا يقضي إلا على يد النجليز المذكور، وفوض له جميع مراسي المغرب فكل ما أراده أخذه من الوسق سوى الزرع"[103]

النشاط القرصاني بطنجة

المؤثرات العامة على الأنشطة الملاحية، بميناء طنجة أتت أكلها، لما دفعت القائمين عليه إلى المزاوجة بين الحاجة المغربية للتجارة وقلة المبادلات والانصياع للخصوصيات المناخية الداخلية، في واقع بحري عالمي، لايسمح بمزيد من المناورة الضعيفة، بل يريد عملا بديلا عن سياسة الهروب والمحاصصة، والمنع المرفق بمزيد من المراقبة الشديدة. واستطاع المخزن المغربي قراءة القوة والاكراهات المحدقة به، ولهذا كتب السلطان مولاي سليمان إلى أخيه مولاي الطيب،عن العمل الدبلوماسي المغربي مع أجناس النصارى في البحر ،واكتفاء المغرب بالمراقبة القرصانية. وقد اعترفت المراسلات السلطانية مع ولاة البوغاز بتفوق سفن السابقين لهم مما جعلهم يمنون النفس بتجديد هذا النشاط وضبطه. منذ عهد محمد بن عبد الله الذي اختار مراقبة البحرية والمراكب الجهادية التي "تدور في البحر وتقرس"[104] كما تحرص على متابعة أخبار المراكب ومسارها من بلد الخروج والوجهة وتراقب الجوازات[105] والتمييز بين المتعاهدين من غيرهم واسره غنيمة قصد دفع بلدانها إلى دفع الايتاوات أو عقد صفقات ومعاهدات.[106]

---

[102] الضعيف الرباطي، **تاريخ الدولة السعيدة**،محمد بن عبد السلام الضعيف،تعريب وتحقيق، أحمد العماري. نشر المأثورات،ط1. 1986، ص 228.

[38] تصريح المولى سليمان للانجليز ،انظر الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة،م س،ص 229.

[104] يقصد به " حال والده محمد بن عبد الله" المتعامل مع الأجناس.

[105] يقصد بالباصبور passeport التصريحات والرخص التي يقدمها والي المنطقة البحرية وقنصل البلد المقصود المغرب للدول المتعاهدة.

[106] من رسالة المولى سليمان إلى أخيه مولاي الطيب ب طيط 16غشت 1794. الوثائق.

اتبع المولى سليمان في تعاملاته طريقة التصاريح التجارية والدبلوماسية فاصلا بين الدولة والتاجر، مميزا حدود التعامل الاقتصادي للدول والقوى؛ وللفرد التاجر الذي يعتبر الحلقة الضعيفة، فكلما أخل بتعامله؛ يمكن اعتقاله أو تفليسه ماليا إذا لم يتاجر بإذن السلطان "فالتاجر الذي يوسق منها إنما يكون عن أمرنا ومن أوسق...بدون أمرنا،فهو عرض مراكبه وماله للتلف ومن كان بأمرنا فهو وماله ومراكبه في أمان فإن قرسنت مراكبنا عليه إنما قرسنت على التاجر الذي دخلها دون أمرنا "[107]

شكل تأثير القوى الخارجية عنصر أساسي في التنظيم المرفئي، ولما احتدت المنافسة بين الفرنسيين والأسبان وبين القوى الأوربية لم تتردد بريطانيا في دعم المغرب والارتباط به، لوعيها بخطورة مرسى طنجة بالنسبة لجبل طارق الذي تهدده إسبانيا ،لذلك تغيرت علاقاتها مع المغرب حتى1814، وقد حصلت من المولى سليمان على موافقة تصدير الثيران نحو جبل طارق في سنة 1804 لما يناهز من2000رأس مقابل رسوم منخفضة. والقمح سنة1812 للجيوش الإنجليزية[108].

وقد اعتمدت الطرق البحرية بالمغرب لفك الحصار ومباغتة الثوار أو ملاحقة التجار المخالفين وقطاع الطرق واعتراض المواصلات بين المراسي، وبين الداخل كسوق للاستيراد والاستهلاك[109] حتى إنه سجل للبحر دور كبير وكمثال على ذلك أن :" **اللصوص يهاجمون على الناس ليلا وعم الخراب وخرج الناس لتطوان وما والاها لجلب الطعام إذ سخر الله العدو الكافر يحمل الطعام من بلاده لأرض المسلمين، فاشترى أهل فاس الزرع فامتنع أهل الإبل (البدو) وماطلوهم..وبقو معطلين عن حمله ستة أشهر،فمات خلائق...ولولا أن الله سخر العدو على إخراج القوت للمسلمين** »[110]

الملاحظ أن الميناء منشأة قائمة لها نوع من الاستقلالية في التدبير والمالية في المغرب إنما يخضع لقيود كثيرة تحصر عمله منذ القديم، لكن الضغط الاوربي زادها تدهورا بفرض قانون تصاريح السفر والمتاجرة. منح السلطان مولاي سليمان[111] سنة 1218هـــ/1803م، "التاجر عبد الرحمان مدينة الأندلسي التطواني تصريحا للسفر بحرا لبر النصارى تاجرا، فأظهر لشهوده ما بصندوقه من مال وأشهد عليه العدول وأمناء المراسي[112]. وهذا التدخل أرهق العامل في البحرية والميناء بقيود كثيرة، كتغير

---

[107]) رسالة مولاي سليمان لأخيه مولاي الطيب1794. الوثائق.
[108] خالد بن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى**، م س، ص46.
[109]) ملاحظة الوسيلة الوحيد للنقل هي ظهور الدواب التي يمتلكها الوالي والبدو وخصصت لهذا الغرض.بل وضعت رهن إشارة التجار ومعها طائفة من الحمالين والرفاكة والرقاصين،بمقابل مالي
[110]) القادري ، نشر المثاني ج2م س.
[111]) سلطان مغربي من الاسرة العلوية، تولى الحكم بعد أخيه اليزيد ،ما بين 1792و1822 وعرف عهده بتبني سياسة الاحتراز.
[112]) محمد داوود ، **تاريخ تطوان** ، ج 3، م س، ص193.

العليمات وعدم استقرارها. ونعرف أن السفر ناتج عن عادة اقتصادية مينائية تعود جذورها إلى الصراع الديني في العصر الوسيط. وفرضت على حركية التجار وعامة الناس قيود. في هذا المرسى سمح بالحديث عن مهمات اجتماعية وسياسية وغيرها. تبعا لتجدد المستلزمات والمبادلات التي لم تعد تقتصر على التجارات ومكوناتها، لكن الفترات المتلاحقة للضغوط جعلت البلد كله ينفتح ويغير الأساليب نزولا عند مقولة لا يجب أن نبقي "**ما كان على ما كان، بل لا بد من حلول أمور أفضل منها وأتقن**"[113] أو " **ليس من السياسة أن يقف الانسان في كل نائبة على ما عهد بها بل تتجدد السياسة بتجدد الأزمة والأحوال**"[114]

استعملت طنجة نقطة قرصانيه ضاغطة ومنها تجسدت إرادة المولى سليمان في إعادة تنظيم سفنه وتقويتها على غرار سفن أبيه محمد بن عبد الله إذ يقول:

"ونحن في مراكبنا التي أردنا سفرها على نسقه(الوالد) فاجمع عندك القونصوات و أعلمهم بان مراكبنا التي تقرس وتدور في البحر كمراكب مولانا الوالد فلا يتوهموا أن التقرسين أنما هو على مراكبهم[115]**.**

ناقشت الاتفاقيات التباس أنشطة مثيرة بالميناء كالقرصنة والتجارة أو قضايا السماح ببيع الأسرى والمتأرجحة ما بين الإباحة والمنع، والعمل بمبدأ أحكام الفترة الانتقالية والذي اعترته "قضية" أولويات تحديد حرية بيع البحارة المغاربة والقراصنة لما تحت أيديهم من أسرى؛ هل بموافقة الساهرين على تسيير الميناء، أو تطبيق الاستثناء الموقع مع بعض الأجناس بأن "لا يباع رعايا الجنس" مما يعرقل أنشطة مدرة للربح للتجار والمراكبية. لتدخل قضية حرية البيع في المراكب دون أرضية الميناء كإجراء تقني ويتحايل الرياس والبحارة وتقديم أجوبة يتذرع بها للمناورة وإيجاد الحلول للمشكلات المثارة، وهو ما طاله التفاوض وتوصل إلى منعه باتفاقيات أخرى حرمت "بيع أي أسير تابع لجنس معين في سواحل المغرب". فكيف يتصرف السلطان وسلطات المرسى في هذا الشأن؟ قضية الحدود الإقليمية والبحرية يرجع تعينها والفصل حولها للدبلوماسية وتعهداتها بأوفاق لتحديد الملك البحري في ثلاثة أميال بحرية، أو ما تصله رماية المدافع؛ هذه الأخيرة التي تتغير بتطور ومدى قوة رمي المدافع مع تطور التقنية العسكرية. ويكون التعامل بالمرونة والتجدد أو تمديد الاتفاقيات. أو اقتباس المعارف الأوربية حتى

---

[113] السملالي وزير السلطان ،تولى تدريس الحساب في عهد المولى عبد الرحمان ت1893/1311م.

[114] الكلام لأرسطو استشهد به السملالي. الوزير المغربي.تعبيرا منه عن يادرة للتخفيف من وطأة المؤامرات الخارجية تجاه المغرب.

[115]) رسالة 1794/08/16 من مولاي سليمان.

يضمن سلامة الملاحة ومنع السفن من استعمال العنف والقرصنة بالساحل، بل وبمنع مغادرة السفن العدوة لأي جنس أوربي له عداوة مع جنس أخر.

القرصنة والنمو التجاري

فنتطرق كذلك إلى أهمية القرصنة في العملية التجارية والتنظيمية للسواحل المغربية، وتفعيل تدخل الدولة في مناطق القبائل. وتحدث عن مرتكزات البحث في تاريخ البحر، محاولا رصد المسارات والمداخل السلمية للبحث فيها بالنبش في الروح الاقتصادية، والروح السياسية المؤطرة، وأجاب الأسباب حول اختلاف مراحل التاريخ البحري المغربي.

الأسطول البحري القرصني المغربي على الرغم من وظيفته الجهادية، له وظائف أخرى تتمثل في القيام بمهام التجارة والخفارة، ومرافقة الرحلات الدبلوماسية، ومهمة الضغط على الأوربي لعقد مزيد من الاتفاقيات(وتقديم الهدايا) وتجديد معظمها، والحصول على ايتاوات سنوية. تشهد مراسلة دبلوماسية أوربية على القرصنة المغربية 1828"أما السفن القرصانية المغربية فهي لا تهاجم إلا سفن الدول التي لم توقع اتفاق صلح مع المغرب"[116] علما أن القرصنة بالمتوسط أكثر نشاطا نظرا لتعاضد بين التونسيين والجزائريين من جهة ضد الأوربيون الذي سخروا فرسان مالطا لهذه المهمة، ومن جهة ثانية وفر المغرب في مراسيه ملاذا لمتمردي الدول الأوربية الذين يسعون للانتقام من دولهم[117]؛ وبالتالي فإن قضية مشاركة المغرب في القرصنة مقارنة بباقي القوى الأخرى ضعيف للغاية. ومع تراجع الاسطول المغربي كله، وافتقاره إلى الفعالية والاستمرارية لمجابهة الاساطيل الأوربية؛ فإن البحرية والنشاط القرصني لم تعد لهما قيمة وجرأة على توفير مداخيل كبيرة، عما كان يحصل عليه المغرب من التفاهمات التجارية، وسياسة الهدايا التي تقدم من قبل الدبلوماسيين.وقد تخلت قوى أوربية لمصلحة سفن غير مهادنة للسلطان المغربي ونجد نظير ذلك في الرسائل القنصلية يتحدث عن " بريك مغربي يسمى ربيع الخير بقيادة عبد الرحمان بركاش يستولي على سفينة نمساوية بالقرب من قادس تدعى فيلوس Véloce وعلى متنها 13 رجل تربط بين أوربا والبرازيل. ويخبر القنصل بأنواع السفن المغربية التي تقوم بنشاط القرصنة المرخصة ب ثلاثة براريك وهي مدعمة ب34قطعة مدفعية و310 من الرجال لهذا الغرض"[118] غير أنه لا يمكن الحديث عن عدم ممارسة القرصنة إلا تحت إمرة المسؤولين المغاربة في

---

[116] القنصل العام البرتغالي بطنجة ، دا سيلفا ، **الوثائق المعربية** رقم 311-312.

[117] Bendloq(abraham).journale de tanger.op cit.P68.
يذكرنا بصارع القوى الأوربية في ما بينها وبين المخزن سنة 1828 والتي أثارها المبعوث الاسباني briely عند سماح المخزن المغربي للاجئين السياسيين بالمكوث في طنجة وتحالفهم مع القراصنة الاستعماريون الفارين من الجيشين الفرنسي والاسباني وتغاضي السلطان عنهم.

[118] رسالة إلى قنصل النمسا بجبل طارق ، ب برتوزي P. Bertuzzi سنة 1828.انظر عثمان المنصوري ، **العلاقات** ، ج 2،ص426.

هذه الفترة رغم كل المداهنات السياسية والضغوط العسكرية، وان اختلفت طبيعة ممارستها ومجالات استقرار القرصان دون علم أو بعلم الفاعلين السياسيين.

تتضمن السفن القرصانية أو الجهادية المغربية بضعة رجال وسفن مسلحة في أغلبها، ومع قلة الفعالية. سواء تلك التي تعمل لحساب الدولة أو لحساب الخواص الذين يعبتروها مصدرا للرزق، كالقراصنة الريفيين الذين يعمدون إلى تعويض فقر مجالهم الترابي؛ فيترصدون كل سفن تمر بشواطئهم ومن وقع لها عطب أو توقفت عن الجري نتيجة قلة الرياح؛ ومن جنحت بها الريح إلى البر. مما دفع الأجناس إلى مطالبة توفير أسطول لحماية الساحل من القرصنة الفردية التي لا تديرها الدولة. "خرجت سفن الريس فرح مسلحة بالسلاح البحري الهولاندي والاسباني والمالطي والليفورني"[119] بغية القيام بعمليات القرصنة.

كانت القرصنة نشاطا مشروعا في بداية ذلك العصر، إذ نجد شواهده التي تمثلها جوازات سفر سلمت للقرصنة المغاربة من قبل سلطات المرسى، ومن توقيع قناصل وممثلي الأجناس؛ حتى لا يتم اعتقالهم أو مضايقتهم في البحر من طرف سفن البلدان التي تصل سواحلها؛ أو تراقب تحركات سفنها من الثغور المغربية. ولذلك يكون خط يد القنصل دليل على مشروعية العمل والإبحار. ويسمح بالنشاط والحركة كلما سلمت الجوازات للفرق المغربية. وكونها قضية دولية ممارسة في المياه المتوسطية والأطلنتية، اشتدت الضغوط على السلاطين لتحويلها إلى أداة مقننة. وفي محاولة منها لوضع حد لهذا العمل انتهزت فرنسا أسر المغاربة سفينة لاسيرين La sirene بالقرب من قادس سنة1763 تنظيم هجوم سرعان ما انكسرت قطعه العشر لبراعة المجاهدين واختبائهم في نهر اللكوس ومني الأميرال شافو بهزيمة،عوضتها فرنسا بتوقيع معاهدة سلام في 28ماي 1767القاضية بمنع القرصنة[120].علاوة على خسارة القرصان الهاشمي المستيري عند رأس سبارطيل أمام بارجة توسكانية التي تمكنت من تشتيت نصف الأسطول المغربي[121].وصدر على إثرها أمر تفكيك الأسطول القرصني1817م، وتجدد الأمر بعد مناورة أوربية بالسواحل المغربية[122] .

---

[119] Chenier, **les correspandance**.op cit.212.

[120]) كواندروا، القرصنة، م س، ص176.

[121]) نفسه

[122] الناصري، **الاستقصاء،م س،ج9**،ص133. وانظرالناصري، ج4،ص184.ومحمد المنوني في المظاهر،ج1، ص11/10.يقول الناصري عن عبد الرحمان بن هشام" فانه رحمه الله لما أراد إحياء هذه السنة صادف إبان قيام شوكة الفرنج ووفور عددهم وأدواتهم البحرية وصار الغزو في البحر يثير الخصومة والدفاع والتجادل والنزاع، ويهيج الضغن بين الدولة العلية ودول الأجناس الموالية لها...وأعمل رحمه الله فكره ورويته،فظهر له التوقف عن أمر البحر، رعيا للمصلحة الوقتية ولقلة المنفعة العائدة من غزو المراكب الإسلامية"ص184،ج4.

وتتعدد طرق المواجهة البحرية والتسلل.إذ يحاول القرصان المغربي كيفما كان نوع وسيلته البحرية، التخفي والمراوغة عند استعمال القوة المضادة، والمطاردة اللصيقة. في مدن الشمال كان القراصنة يستعملون الأنهار للاختباء من السفن الطاردة ونيران المدفعية، أو وقاية من الأمطار في مواسم الشتاء، ويحرص المغربي على عمل الآلية البحرية أطول مدة لعوز في القطع وانتفاء فرص التجديد وقلتها، مما يجعله شديد الاهتمام بتوفره على سفن ومراكب بشتى الطرق. وغالبية سفن القرصنة، أما سفن غنمت أو تم شراؤها من الخارج.على أنه بالنسبة للقرصان الذي لا ينتظم في مهمة الدولة أو تابعا لأحد الولاة؛ فهو يخلق شبكة من العلاقات والاستراتيجيات بغية تحقيق مزيد من الأرباح والظفر بالغنائم المطلوبة، فيتموضع بأماكن مجهولة ومحلات غير مكشوفة بمنائ عن السيطرة العسكرية.

ومهما يكن فالقراصنة المغاربة والمغاربيين خلقوا شبكة اقتصادية حيوية تجاوزت الحدود السياسية لدولهم، وتمكنت من الالتفاف على الاوفاق التي أبرمت مع بلدانهم. فبذلوا مجهودا للتواصل والتحفيز والتبادل التقني والحربي المسلح، وتقوم هذه المجموعات بممارسة أنشطتها في المياه الدولية وفي الجوار، مستهدفة السفن المحملة. وخير دليل ما يقوم به الجزائريون بمياه المغرب ضد السفن الأوربية المهادنة للمغرب[123]. ونؤكد على غرار النهج البروديلي أن " القرصنة مغامرة وحرفة لا وطن ولا دين لها[124] ". ومما يفسر انتصار الهجمات الخارجية تفوقها في الملاحة والتسليح، إذ لم يستطع المغاربة الصمود أمام البواخر الإسبانية والبرتغالية المتينة، من نوع الكرافيلا caravelle المجهزة بالمدافع والمعروفة بمرونتها المنسابة في البحر والمحيط.

كان لنجاح فرنسا بحريا أن قادت الحرب بعد خروجها من أزمة ارتباطها مع روما والتي قادت كولبير للقيام بحروب ضد البرابرة والقرصنة، وهو ما يعد إشارة "على أن الوزارة اهتمت بالتجارة مع بلاد البربر وغيَّر معارضته لتجارة بلاده الخارجية، إذ أن التوجه العام بأوربا كلها هو نحو التجارة فاشترى ميناء طنجة، وجيجر، فأبرم اتفاقية مع بلاد البرابرة"[125].وإلى جانب المواجهة في الثغور، طغت على علاقات المغرب بأوربا على عهد محمد بن عبد الله مسألة القرصنة، فقد اهتم محمد بن عبد الله بها وجعلها مؤسسة تابعة للدولة، وحاول توظيفها وتسخيرها في علاقات المغرب بأوربا، وصار الأسطول المغربي يجوب البحار ويضايق الأساطيل التجارية الأوربية[126]. فالنزول إلى البحر يتم في

---

123) H de Castre.**SIHM**.1er. s.fr.TIII.p p323.324. les événements de l'année 1700.

124) F, Braudel, **la méditerrané,** op. cit. ;vol 2 ;p191.

125) France et Maghreb ;La revue africaine ;n° 1934, p442 .

126)عبد المجيد القدوري، المغرب وأوربا ،م س، ص.219.

الفصول المعتدلة والأوقات الصالحة للملاحة والموافقة للقدرة الإبحارية للمراكب والسفن المغربية، والسنوات التي تولى فيها السلطان المولى سليمان يصفها جاك كايي مخبرا عن القرصنة "في هذه اللحظة(1809) اقتصرت القرصنة على الروس"[127] وقد يكون هذا التصرف والإستثناء مجرد ضغط على الطرف غير الموقع مع السلطان الذي أنهى الأزمة لصالحه.وقد احتل تبادل الأسرى مكانة هامة في تحديد علاقات المغرب بأوربا زمن محمد بن عبد الله . فقد أولى هذا الأخير أهمية كبرى للأسرى وأحاطهم بعناية خاصة سواء كانوا مسلمين أو مسحيين[128].

هناك عامل أساسي لا يمكن إغفاله حيث سعت أوربا للتقرب إلى المغرب، ذلك أن القرصان المغربي الذي يتجول في البحر بحثا عن الغنائم وسفن الدول الأوربية[129]، ذائعي الصيت وكانوا يدخلون الرعب والذعر في الملاحة الأوربية؛ الشيء الذي جعل هذه الأقطار تتسارع إلى مصالحة السلطان المغربي والإشادة بدوره في احتواء وتوجيه القرصنة، منذ زمن المولى اسماعيل إلى قائد البحرية محمد بن عبد الله1757–1790م بدءا ببلاد الدنمارك، بينما كان مصير من تعنت وامتنع وعلى رأسهم فرنسا التي قامت بعد تعرضها لخسائر كبيرة بمباغتة الأسطول المغربي، وقصف المراسي كسلا والعرائش[130] . وبعد كل عمل قرصني يتوقع إن تعقبه مصالحة اقتصادية ونفسية كثيرة، وقد شكل تبادل الاسرى سنة اختط لها في القرن18، بعلم السلطان محمد بن عبد الله الذي اعتبرها استمرارا لسلوكات موروثة عبر التاريخ المغربي ككل.

يشير صاحب "في الأسر المغربي" أن المغاربة يعتمدون على البغال في النقل التجاري بحيث ينقل عليها الأسرى نحو طنجة ومنها إلى بلدانهم بحرا بعدما يتم إعلام القناصل؛ وتجهيز السفن وتقديم التصاريح السلطانية من قبل رؤساء البعثات الأجنبية إلى قائد المدينة والذي يسهل بدوره السفر عبر الميناء حاملة الأسرى المحررين[131].

ومما يؤثر في عمل الجهاد البحري والقرصنة المغربية وضعها تحت إمرة السلطان، وقلة منافعها الظاهرة على العاملين مباشرة، رغم تحايلاتهم الكثيرة في إخفاء جزء من عائداتها لأنفسهم. وكثيرا ما يجنح السلطان إلى محاباة ضيوفه الدبلوماسيين ويقدم الأسرى هدية، ونموذجها الواضح في زمن المولى

127) Caille (j) **la Maission** ; op cit ; p109.

[128]) عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوربا** ،م س، ص220.

[129]) **Leg, 2040**. Mequinez (1505-1792) échange des captifs espagnols contre les mariucus ….ismaile /don phillippe cautivos) Fran .Ceuta.

[130]) Georg Host**. Histoire de L'Empereur du Maroc. Mohamed ben Abdellah**. Copenhagan, imprime chez Nicolas Meller et fils-imprimeur de la coure royale ; 1971.p26.

[131]) Albert (savine)**Dans Les Fers du Maghrib**, récits de chrétiens esclaves au Maroc(XVII et XVIII[eme] siècles) ed ;louis-Michaud ;paris.1912 ,p155.

إسماعيل الذي أتحف السفير الإنجليزي مع وجبة إفطار بمجموعة من الأسرى، بعدما استعمال فيها السفير مناورة إرشاء حريم البلاط[132]. وكانت طريقة إفتكاكهم مقابل البارود، الأقفال والكبريت والمنسوجات، وأسرى مغاربة وأمر السلطان بتسريحهم على الفور[133].

كما أثر على استمرار تطور العمليات القرصانية، ما عملت به الشعوب الأوربية من وسائل قانونية زجرية لدرء خسائر القرصنة واللصوصية، والعمل بمبدأ حق الانتقام letter de reprisals وبدأت تستعمله لردع القرصنة" حق كل رب سفينة أو تاجر أوربي تعرضت ممتلكاته للنهب والتلف على يد القراصنة، ان يستعيد ما ضاع منه، أو يأخذ ما يعادل ذلك من أي سفينة التقيا بها؛على أساس أن تكون هذه السفينة تابعة للبلد الذي ينتمي إليه القراصنة الذين استولوا على ممتلكات"[134]. كما أخذ التجار يقومون بالسفر عبر قوافل متقاربة في سيرها إفشال أي سطو وهجوم يقوم به القراصين. ووجهت القرصنة برسائل التمييز التي تمنح للقراصنة الرسميون، من أجل مراقبة المياه المحيطة بالبلد والسفن القادمة أو متابعة السفن في عرض البحر، للحيلولة دون مضايقة بين سفن الدول الأعداء في المياه المغربية[135]. وتأتي معاناة المسيحيين من القرصنة الإسلامية من ازدهار تجارة هؤلاء ومن سهولة الهجوم على سواحلهم غير المحصنة والتي تصعب حمايتها[136]. ويعود الفضل في إنهاء القرصنة إلى الاتفاق الذي توصلت إليه الدول الأوربية بعد حرب القرم سنة 1856، وذيلت به لمعاهدة أخرى تضمنت إلغاء القرصنة نهائيا، وبمصادقة 34دولة ما عدا إسبانيا والمكسيك والولايات المتحدة الأمريكية. والتي ضيقت الهوة على القراصنة المغاربة وأنهت مشروعا ماليا في عز نموه.

لعبت طنجة دورا متميزا على عهد سيدي محمد بن عبد الله، في قضية افتكاك الأسرى، ولهذا الغرض بعث في يناير 1780ببعثة نحو جنوة الايطالية، يتقدمها السفير محمد السراج. ثم بعث سنة1782 السفير محمد بن عبد المالك قائد طنجة[137] إلى مدينة ليفورن في أكتوبر من نفس السنة.وكتب السلطان نص الاتفاقية التي تضمنت خمس فصول.

يورد جاك كابي في الاتفاقيات إن السلطان المغربي سنة1777م خاطب الأوربيين بشأن تبادل الأسرى، وإعطاء الأولوية للمسنين خاصة الذين تجاوزوا 60 سنة والنساء اللواتي لا يمكن إخضاعهم

---

[132]) سبق أن تطرقت إلى تدخل وتأثير الحريم في مجريات التاريخ في الإمبراطورية العثمانية وفي المغرب

[133]) جون وندوس **رحلة إلى مكناس**،ترجمة زهراء إخوان،ط جامعة المولى إسماعيل مكناس،1992،ص112.

[134]) Coindreau , (R), **les corsaires de sale** op.cit.p14.

[135]) انظر محمد حجي ، **جولات تاريخية** .م س.

[136]) Coindreau ,(R), **les corsaires de sale**. op cit ; p27.

[137]) ابن زيدان **الإتحاف** ،ج3 ص235.

للأسر[138]. وكان على المخزن ضرب عصفورين بحجر واحد في عملية تبادل الاسرى إذ قام المولى سليمان بمراقبة السواحل وضبط التجارة مع التحكم في العمل القرصني وحتى يتحايل عن الأوربيين. وضمن حياديته في القضية خلق مسيرين يشتغلون بالقرصنة كفرق متمردة.

الأسطول القرصني يؤدي وظيفة الخدمة الدبلوماسية، وحماية السفن والمعاهدات، تحصيل ايتاوات سنوية ثم قيادة الدفاع والهجوم. ولهذا الغرض أنشئت أوراش لصناعة المراكب بكل من طنجة والعرائش والرباط[139]. كما عملت الدبلوماسية على تحديد قيمة ثمن الأسرى والذي في حد ذاته يدل على تشجيع القراصنة والأسر بين الطرفين[140]. ويظهر المسعى المغربي في مفاوضاته حول القرصنة، بإلحاح على تقييم أضرار نشاطها على السفن المغربية في المياه الدولية وعلى السفن الأوربية، التي يبينها التقرير اليومي الكاشف لعدد نشاطات المراكب وعدد الآليات المستهدفة خلال الفترة الممتدة ما بين سنة 1821– إلى سنة1828م[141] والتي وقعت في شراك القرصنة كما تقدمها تقارير جواسيس الدول الاوربية بمرسى طنجة. خاصة من جريدة بن دلاق[142] والتي تحدثت عن الحصار الانجليزي، والاستعراض النمساوي تدخل الجار الفرنسي في طنجة، أدوا إلى تعجيل تسلسل الأحداث واعلان فترة انقلاب العمل القرصاني لصالح القوى الأوربية. فدخلت طنجة مع سنوات 1828–1830 مرحلة جديدة من تاريخها إنها تدبير مواجهات الصراع بين ممثلي أوربا وبين سلطة المخزن حيث انتقلوا من قبول تعديل الهفوات إلى قيادة رهانات حاسمة، تجاريا واجتماعيا ثم اقتصاديا ودبلوماسية؛ فاتخذت طنجة مقرا للقنصليات والمفاوضات.

---

[138]) Caille (j) **Les Accords**, op cit.p36.

[139]) J l. miége **; chronique de tanger1820-1830**.journal de bendeac, ed ، la port.1995 ; p320.

[140]) انظر الملحق ش2مع جنوة.

[141]) تقارير الممثل القنصلي (الهولندي)، التي يدونها العميل ابرهام بن دلاك بميناء طنجة خلال هذه السنة 1828.أنظر عملنا ميناء طنجة ، م س.

[142]) فرد من الأسر اليهودية المستقرة بالشمال المغربي كتب عنها الكثير ، انظر كتاب مبارك زكي " من الجالية الهولندية بتطوان عائلة بن دلاك اليهودية 1827-1899" مجلة كلية الآداب تطوان ، ع 14/13/12 نونبر1992ص ص 150-158.

قضايا منهجية

المجتمع البدوي والواحي:دراسة مفاهيمية تحليلية

محمد بوالنعناع
باحث في علم الاجتماع
مركز الدكتوراه كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط

مقدمة

تثير دراسة المجال الصحراوي أسئلة ذو طبيعة متباينة، قد تتطلب الولوج في مسلكيات شائكة ومعقدة. ومن المؤكد أن هذا المجال يمكن أن يكون موضوعا لمقاربات وتحليلات مختلفة. إلا أن مسلك البعد الاجتماعي-التاريخي لهذا المجال لا ينفك أن يكون مشتركا وأساسيا في جميع الدراسات المهتمة بهذا المجال، ويتجلى هذا البعد في كون أن المجتمع الصحراوي هو في جوهره مجتمع بدوي وواحي. ولذلك لابد من أي دراسة في هذا الشأن أن تنطلق من تحديد لمفهوم المجتمع البدوي والواحي.

وفي هذا السياق تأتي هذه المساهمة البحثية، لتطمح انطلاقا من مقاربة مفاهيمية تحليلية، إلى تشريح أهم المكونات المفاهيمية للمجتمع البدوي والواحي. ومعنى ذلك التركيز بشكل مباشر

على التدقيق العلمي لروح هذا الفضاء الصحراوي والواحي، مستضيئين في ذلك بفرضية جوهرية مؤداها أن المجال الصحراوي، لا يمكن تصوره بالمعنى الحصري للكلمة، إلا باستحضار على نطاق عميق مفهوم المجتمع البدوي والواحي. فطرح العلاقة المعقدة بين الصحراء وبين البداوة والواحة، هو المدخل النظري الأقوى والأغنى لكل الأسئلة والإشكالات المرتبطة بدراسة المجال الصحراوي. ولا يمكن التدقيق في دراسة قضايا هذا المجال، دون استحضار للعمق التاريخي والاجتماعي الذي يؤسسه. ومن هذا المنطلق سنحاول في هذا البحث، أن نتعرض إلى بعض الدلالات المعرفية لمفهوم المجتمع البدوي والواحي، وتقديم تحليل للعناصر المفاهيمية المشكلة لهذا المفهوم. وذلك كله بغية تمكيننا من فهم دقيق للخصائص الاجتماعية والثقافية والتاريخية للمجتمع البدوي والواحي.

أولا: ماذا نعني بالمجتمع؟

إن تحديد مفهوم المجتمع البدوي والواحي يقتضي منا في البداية ضبط مفهوم المجتمع، الذي يستخدم في كتابات علم الاجتماع للإشارة إلى مجموعة من الناس يعيشون في حيز معين، ويخضعون لنظام واحد من السلطة السياسية، وهم على وعي بأن لهم هوية تميزهم عن الجماعات الأخرى المحيطة بهم[143]. ومعنى ذلك أن المجتمع بهذا التحديد يرتكز على أربعة عناصر أساسية: البشر والمكان والتنظيم السياسي ثم الوعي الجماعي. أما موريس جينزبرج (Morris Ginsberg) فيرى أن كلمة مجتمع تعني مجموعة من الأفراد تربطهم أو تجمعهم صلات معينة أو طرق من السلوك تميزهم عن أفراد آخرين لا تشملهم أو تربطهم هذه الصلات أو يختلفون عنهم في السلوك[144]. في حين ينظر الاتجاه البنائي التكاملي إلى المجتمع باعتباره يتألف من أشخاص يحتلون مراكز محددة في البناء المجتمعي الذي يحتويهم وتقوم بينهم علاقات تحكمها معايير وجزاءات معينة[145].

ولعل مفهوم المجتمع من أهم مفاهيم الفكر السوسيولوجي المتداولة بشدة في مختلف الكتابات الحديثة، وبمعاني مختلفة، إلا أن المعنى الأكثر استخداما يشير إلى أن المجتمع عبارة عن نسق اجتماعي مكتف بذاته، ومستمر في البقاء بفعل قواه الخاصة، ويضم أعضاء من الجنسين (ذكورا

---

[143] أنتوني غدنز، (2005)، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط 1، ص 761.

[144] صلاح الفوال، (بدون سنة النشر)، دراسة علم الاجتماع البدوي، مكتبة غريب، دار قباء للطباعة، ص 151.

[145] محمد عبده محجوب، (بدون سنة النشر)، الاتجاه السوسيوانثروبولوجي في دراسة المجتمع، الكويت: وكالة المطبوعات، ص 15.

وإناثا) ومن جميع الأعمار[146]. كما تستعمل كلمة مجتمع للدلالة على مجموع العلاقات الاجتماعية، أو إلى كيان غامض يكمن وراء العادات الاجتماعية العادية ويعمل على فرضها على الناس[147]. فبخصوص العلاقات الاجتماعية اعتنى مجموعة من علماء الاجتماع بالعلاقات التي تربط أبناء المجتمع بعضهم ببعض، فهذا بيرجس (Burgess) يذهب إلى أن المجتمع عبارة عن جملة علاقات تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتعبر عن مدى التبادل بينهم[148].

ومن المنطلق نفسه، يورد كتاب "المجتمع والدولة في الوطن العربي" تعريفا للمجتمع يقول فيه: "أن المجتمع هو كيان جماعي من البشر، بينهم شبكة من التفاعلات والعلاقات الدائمة والمستقرة نسبيا، وتسمح باستمرار هذا الكيان وبقائه وتجدده في الزمان والمكان"[149]. والملاحظ في هذا التعريف أنه يضيف عنصرا جديدا وهو التفاعلات والعلاقات الدائمة والمستقرة نسبيا، بمعنى أن المجتمع لابد له وأن يتأسس على علاقات وتفاعلات مستمرة بين الأفراد، وهو ما يضفي طبعا على هذا المجتمع صبغة الاستمرارية والبقاء.

ولذلك يرى سمير إبراهيم حسن في كتابه "تمهيد في علم الاجتماع" أنه لا يشكل الناس مجتمعا له كيانه وهويته إلا إذا ترابطوا بروابط وعلاقات ونظم محددة توجه سلوكهم ونشاطاتهم وتلبي حاجاتهم المختلفة وتمنحهم شعورا بالانتماء، وبدون ذلك لا يشكلون مجتمعا له وجوده وكيانه المتميز[150]. بل لابد لهذا المجتمع أن يتضمن جميع النظم الضرورية لمواجهة الحاجات البشرية الأساسية، وهو مستقل، لا بمعنى اكتفائه الذاتي التام اقتصاديا، ولكن بمعنى شموله لجميع الأشكال التنظيمية الضرورية لبقائه[151].

وفي الحقيقة، إن مفهوم المجتمع من المفاهيم الكبرى التي اختلفت بصددها آراء علماء الاجتماع الكبار، سواء من الناحية النظرية أو من حيث المنهج الملائم لتناوله. ففي حين نجد

---

[146] محمد محمود الجوهري، (2010)، المدخل الى علم الاجتماع، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط 1، ص 32.

[147] المرجع نفسه، ص 33.

[148] إبراهيم مدكور، (1975)، "كلمة مجتمع" ضمن: معجم العلوم الاجتماعية، تصميم ومراجعة إبراهيم مدكور، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 516.

[149] سعد الدين إبراهيم وآخرون، (1996)، المجتمع والدولة في الوطن العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، ص 37.

[150] سمير إبراهيم حسن، (2012)، تمهيد في علم الاجتماع، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، ص 35.

[151] المرجع نفسه، ص 37-38.

البعض يقول بأن التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية تحدد في مرحلة تاريخية معينة وجود المجتمع وأشكال العلاقات والمؤسسات فيه (الماركسية)، رأى آخرون أنه نتاج الفعل الاجتماعي أو مجموعة البنى والوظائف التي تنشأ وتظهر فيه (البنيوية والوظيفية)[152]. فبالنسبة للتصور الماركسي حياة المجتمع هي في تكامل وترابط بين المظاهر المختلفة. وبالتالي ينبغي تناول المجتمع في كليته والعمل على الكشف عن قوانينه العامة، وعن عملية التفاعل والروابط المتبادلة بين الأوجه المختلفة للحياة الاجتماعية.

أما المدرسة الوظيفية فترى أن المجتمع نظام معقد تعمل شتى أجزائه سويا لتحقيق الاستقرار والتضامن بين مكوناته. ووفقا لهذه المقاربة، فإن على علم الاجتماع استقصاء علاقة مكونات المجتمع بعضها ببعض وصلتها بالمجتمع برمته[153]. وفي هذا الصدد يرى عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم (Emil Durkheim) أن المجتمعات ماهي إلا أنساق اجتماعية مكونة من تنظيمات أو مؤسسات اجتماعية، باعتبارها تتكون من مجموعات من الأفراد والجماعات التي تسعى لتحقيق أهدافها في البقاء والاستمرار[154]. وهذا هو التصور الذي انبنت عليه معظم أفكار المفكرين والعلماء المعاصرين لدوركايم، وخاصة منهم هربرت سبنسر (Herbert Spenser) وأوكيست كونت (August Comte) وغيرهم. بل إن المجتمع بالنسبة لدوركايم ليس مجدر مجموعة أفراد، وإنما هو نسق خاص ذو حقيقة مستقلة وصفات معينة، وفي مقدمتها سلطته على أفراده وتميزه عن المجتمعات الأخرى، وهو ظاهرة إنسانية، والمجتمع في رأيه سابق على الأسرة والعشيرة، بل على الفرد نفسه[155].

وجميل القول، إن المجتمع في معناه الحديث هو نسق من المؤسسات، وأنماط العلاقات، وأشكال التنظيم والمعايير...، تؤلف كيانا كليا ذات علاقات متبادلة بين مكوناته، وتعيش في نطاقه مجموعة من البشر[156]. لكن إذا كانت المجتمعات تختلف في بنيتها بحسب تاريخها وأصولها وخلفياتها الاجتماعية والثقافية، وهي الأبعاد التي تؤسس للمجتمع وكيانه المتميز المختلف عن الكيانات

---

[152] مجموعة خبراء عرب في علم الاجتماع، (2010)، الموسوعة العربية لعلم الاجتماع، طرابلس: الدار العربية للكتاب، ص 708.

[153] غدنز، (2005)، ص 74.

[154] عبد الله محمد عبد الرحمان، (2006)، النظرية في علم الاجتماع، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص 220-221.

[155] مدكور، (1975)، ص 516.

[156] إبراهيم حسن، (2012)، ص 40.

الأخرى، فلا شك أن المجتمع البدوي هو أيضا يتميز بأبعاد حضارية واجتماعية وثقافية جعلت منه مجتمعا متفردا بخصوصياته التي لا نجدها في مجتمعات أخرى.

ثانيا: البدو والبداوة: التعريف والخصائص

نال موضوع البدو والبداوة اهتماما واسعا من قبل الكثير من الباحثين في حقل العلوم الاجتماعية، حيث يزخر التراث الأكاديمي لعلمي الاجتماع والأنثروبولوجيا خصوصا، بالعديد من الدراسات التي تناولت جوانب مختلفة من الحياة البدوية. ويعد ابن خلدون من رواد الفكر في هذا الميدان، فهو من المفكرين الأوائل الذين تعرضوا لمسألة تعريف المجتمع البدوي، من خلال دراسته للعمران البشري وتناوله للتطور التاريخي للمجتمع، ومقارنته بين البدو والحضر. كما ظهرت منذ بداية القرن التاسع عشر دراسات عديدة كرست اهتمامها لتناول حياة البدو، وذلك في إطار دراسة ما كان يعرف بالمجتمعات البدائية. وقد جذبت البداوة بالخصوص الأوروبيين أكثر من غيرهم، وأعجبوا بالمجتمع البدوي الصحراوي، لأن حياة البدو مغرية ولها قيمة كبيرة بالنسبة للباحثين الأنثروبولوجيين[157].

ومن هنا، تعددت التعريفات التي أعطيت لمفهوم البداوة في مختلف الكتابات التي عالجت الموضوع، وقبل أن نتعرض بالدرس والتحليل لهذه التعريفات، يُحسن بنا في البداية أن نتوقف عند التحديد اللغوي لمصطلح البدو والبداوة. فمفهوم البدو مصطلح قديم، وهو مشتق من الكلمة اليونانية "Nemo" وتعني توزيع أو استرجاع جزء من القطيع من المراعي، كما تستعمل للإشارة إلى السكان الذين ليس لديهم منزل ثابت[158]. أما في اللغة العربية فأصل الكلمة هي "بدا" و"بداء" بمعنى ظهر، و"بداوة" أي خرج إلى البادية. والبادية هي الصحراء ومن ينتسب إليها فهو بدوي، ومن قام بها فهو متبدى[159]. و"البداوة" تعني الحياة في البادية التي يغلب عليها التنقل والترحال، و"البدو" هم أهل البادية أي أهل الصحراء غير أهل الحضر، والبدو هم أصحاب النجعة وارتياد الكلأ وتتبع مصادر الغيث[160].

---

[157] Claude Bataillon et d'autres, (1963), Les Nomades et Nomadisme au Sahara, paris : UNESCO, p 13.

[158] Daniel Nordman, (1989), « Le nomadisme ou le nomadisme d'un mot et d'un concept », dans : Le nomade l'oasis et la ville, URBAMA, N° 20, Tours, Insta print, p 12.

[159] الفوال، (بدون سنة النشر)، ص 305.

[160] المرجع نفسه، ص 305.

وحسب ابن منظور "البَدْوُ والبادِيةُ والبَداةُ والبَداوَةُ: خلاف الحضر، والنسب إليه بدَويٌّ، وبَدا القوم بداءً أي خرجوا إلى باديتهم. وقيل للبادية باديَةٌ لبروزها وظهورها. البادية اسم للأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحاري قيل: قد بَدَوْا، والبادية خلاف الحاضرة، والحاضرة القوم الذين يحْضُرون المياهَ ويترلون عليها في حمْراءِ القيظ، فإذا بَرَدَ الزمان ظعنوا عن أَعْدادِ المياه وبَدَوْا طلبا للقرب من الكَلَإ[161].

وهكذا ينبغي أن نلاحظ الآن، أن التحديد اللغوي للبداوة يعتبرها من جهة أولى مرادفة للتنقل والترحال، ومن جهة ثانية يتم تعريفها كمقابل للحاضرة، وهي خلاف البادية والمقصود بها المدن والقرى والريف. وخلافا لذلك، يرى المختار الهراس أن البداوة لا تشكل كلا متجانسا تتعارض معها أو تقابلها الحضارة، ككل متجانس. بل إن كلا من هذين الطرفين يتضمن في نطاقه مستويات متفاوتة، منها ما يقرب الشقة بينهما، ومنها ما يضفي على تقابلهما صبغة تقاطب حاد[162].

ومع ذلك، فإن البداوة كظاهرة اجتماعية هي مرحلة بدائية في مسيرة الإنسان الحياتية؛ إذ تحتل مكانة أسبق في مرحلة التحضر التي انبثقت عن البداوة بمرور الوقت[163]. كما اعتُبرت البداوة أقدم نمط اجتماعي للحياة شهده الإنسان على مر التاريخ، ولذلك نجد ابن خلدون يقول بأن "البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الضروري أقدم من الحاجي والكمال سابق عليه؛ لأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه. فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلا. فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة. ولهذا نجد التمدن غاية البدوي يجري إليها، وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها"[164].

ومن هذا المنطلق يؤكد بعض الباحثين على ضرورة التمييز بين البدو والبداوة، فمصطلح البداوة هو ذلك النمط من الحياة الذي يرتبط بالترحال المؤقت أو الدائم، ويعني مصطلح البدو

---

[161] ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري، (2003)، لسان العرب، المجلد الرابع عشر، منشورات محمد علي بيضون، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ص 82-83.

[162] المختار الهراس، (1988)، القبيلة والسلطة تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، الرباط: مطبعة الرسالة، ص 17.

[163] بوزياني الدارجي، (2013)، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، الجزائر: مؤسسة بوزياني للنشر، ص 109.

[164] عبد الرحمان ابن خلدون، (2004)، مقدمة ابن خلدون، بيروت: دار الشرق العربي، ص 119-120.

تلك الجماعات التي تعيش حياة التنقل[165]. وأكثر وضوحا من ذلك هو أن البدو بالمنظور الخلدوني هم "أولئك الذين ينتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام ويقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد[166]" دونما السعي إلى تحصيل ما يزيد عنها من كماليات لفقدان الحاجة إليها وللعجز عن اكتسابها[167]، "وهم يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة، وقد يأوون إلى الغيران أو الكهوف. وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيرا بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار[168]".

وعلى ضوء ما كل تقدم، يذكر محيي الدين صابر تعريفا للبداوة يقول فيه، إن البداوة في مفهومها العام، "هي نمط الحياة القائم على التنقل الدائم للإنسان في طلب الرزق حول مراكز مؤقتة، يتوقف مدى الاستقرار عليها (أو فيها) على كمية الموارد المعيشية المتاحة فيها، من ناحية، وعلى كفاية الوسائل الفنية المستعملة في استغلالها، من ناحية ثانية، وعلى مدى الأمن الاجتماعي والطبيعي الذي يمكن أن يتوافر فيها، من ناحية ثالثة"[169]. وانطلاقا من القراءة التحليلية لهذا التعريف يتبين أنه يتميز بالتجريد والتلميح دون التوضيح، فلم يتعرض لخصائص البداوة و لم يتحدث عن طبيعة عملية التنقل، وإذا كان التعريف قد حاول بيان طبيعة حياة البداوة فإنه اتسم بالعمومية وعدم الدقة والتحديد. ولكن لا نغفل أحد الجوانب الهامة في هذا التعريف وهي أنه يحدد بوضوح تام شروط الاستقرار وهي الموارد والوسائل والأمن الاجتماعي والطبيعي، ويعرف البداوة على أساس التنقل الذي تقوم عليه، وهو تنقل كمي وليس تنقلا نوعيا، كما يعتبر أن التنقل البدوي ليس مقابلا لغويا ولا بديلا اجتماعيا لمعنى عدم الاستقرار[170].

وفي هذا الصدد، يأتي تعريف حليم بركات الذي يقول "إن البداوة نمط معيشة متميز يقوم في أساسه على تربية المواشي والإبل والأنعام والرعي والترحال بحثا عن الماء والكلأ، تلائما مع

---

[165] نبيل صبحي حنا، (1984)، المجتمعات الصحراوية في الوطن العربي، القاهرة: دار المعارف، ط1، ص 21.

[166] ابن خلدون، (2004)، ص 119.

[167] الهراس، (1988)، ص 19.

[168] ابن خلدون، (2004)، ص 119.

[169] محيي الدين صابر ولويس كامل مليكة، (1986)، البدو والبداوة مفاهيم ومناهج، بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ص 18.

[170] المرجع نفسه، ص 19.

البيئة الصحراوية أو البادية"[171]. ونستشف من كل ذلك أن الرعي والترحال يشكلان مقومان أساسيان من مقومات البداوة، وقد نشأ هذا النمط أساسا من المعيشة في البادية وتكَوَّن تاريخيا نتيجة لتفاعل دائم وعميق ولزمن طويل مع هذه البيئة، وبانسجام مع اتساعاتها الشاسعة ومحدودية أو ندرة مواردها وقسوة متطلباتها[172].

ويرى الشيخ محمد المامي أن سبب لجوء الناس لسكنى البدو هو الضرورة والنوائب، ولذلك يربط التبدي بالرحيل "فلو ترك أهل البادية الرحيل لما عاشوا"[173]. فقد شكلت البداوة كنمط حياة وكنظام اقتصادي واجتماعي، لعدة قرون الحل الأنسب الذي مكن الإنسان من أن يعيش في الصحراء وأن يستغل منطقة السهوب. وهي تقوم على استقلال سياسي نسبي وعلى ارتباط ضعيف بالأرض، وهو ما سمح للبدو ليتجاهل في الغالب الحدود السياسية وأن يغير، كلما لزم الأمر، أماكن الرعي لتلبية احتياجات الحيوانات[174].

وفي الحقيقة، إن البداوة تعني أسلوبا من التواؤم الايكولوجي الذي يتمثل في حياة النجعة والترحال الذي يفرضه تعاقب الفصول والاشتغال بالرعي أو المزاوجة بينه وبين الزراعة غير الكثيفة التي تعتمد على موارد مائية دائمة كما هو الحال في المجتمعات شبه البدوية[175]. وفي هذا الإطار نجد تعريفا آخر للبداوة وهو لحفيظ الطبابي جاء فيه "أن البداوة ترادف الانتقال المستمر أو الترحال، ونقيض البداوة هو العمران القائم على الثبات والاستقرار، والعلاقة القائمة بين النمطين علاقة صراعية، وهو ليس صراعا مرحليا وإنما تأكيد على حتمية انتصار العمران على البداوة، أي بقاء الصراع بينهما حتى تزول البداوة، من حيث هي ترحال ونظام قبلي واقتصاد رعوي/معاشي"[176]. ونضيف إلى هذا أن البداوة هي التي يمثلها نمط العيش المتسم بالشظف

---

[171] **حليم بركات، (2000)، المجتمع العربي في القرن العشرين بحث في تغير الأحوال والعلاقات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، ص 187.**

[172] **المرجع نفسه، ص 187.**

[173] **الشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي، (2014)، كتاب البادية ونصوص أخرى، تصحيح اللجنة العلمية لزاوية الشيخ محمد المامي بنواكشوط، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص 82-83.**

[174] Ahmed Toufik Zainabi, « vers une disparation rapide du nomadisme au Sahara marocaine » : Le cas de Draa moyenne, dans : Le nomade l'oasis et la ville, URBAMA, N° 20, 1989 ; Tours, Insta print. p 49.

[175] **محمد عبده محجوب، (2009)، الأنثروبولوجيا الاجتماعية دراسات نظرية وتطبيقية، دار المعرفة الجامعية، ص 13-14.**

[176] **حفيظ الطبابي، (2000)، "بدو جهة قفصة: من الترحال الى التوطين (1881-1956)"، المجلة التاريخية المغاربية، منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان، العددان 97-98، السنة 27، ط1، ص 74.**

والضروري من المعاش وهيمنة قيم الترحال وضعف التراكم على المستوى الاقتصادي، حيث المنطقة بعيدة عن القيم الرأسمالية[177].

وإذا كانت البداوة الرعوية هي نمط الحياة السائد الآن في كثير من المجتمعات البدوية عموما والمجتمعات الصحراوية بشكل خاص، فقد ربط كثير من الباحثين بين البداوة كظاهرة وبين الصحراء أو (البيداء) أي أن البداوة هي الصحراء، ومن ينسب إليها فهو بدوي، ومن أقام بها فهو (مبتدي)[178]. وههنا، يلاحظ محمد دحمان أن البداوة ترد في المصادر العربية مرتبطة بالصحراء، لكنه يعتبر أن الأمر في الواقع، هو أن البداوة ليست وقفا على الصحراء[179]. وربما هنا يتفق دحمان مع صلاح الفوال الذي تساءل بدوره هل البداوة وقف على الصحراء؟! ويرى أن الصحراء بكل ظروفها تفرض على أهلها البداوة، لكن من الأمور الثابتة أن الصحراء ليست هي المحتوى الوحيد للبداوة، كما أن البداوة ليست قاصرة على الصحراء، وبالتالي ليست وقفا على الصحراء[180]. ومعنى ذلك أن كل صحراء تهيئ لحياة بداوة، ...ولكن ليس كل حياة بداوة هي حياة صحراء[181].

وفي الواقع، يرتبط ظهور البداوة بصفة عامة بندرة الموارد الاقتصادية أو عدم استقرارها، الأمر الذي يدعو إلى التنقل من مكان إلى آخر. وهذا التنقل عادة ما يكون منتظما، ولكنه في بعض الأحيان يكون متذبذبا من عام إلى آخر[182]. إن التنقل أو الترحال في أصله يعتبر ضرورة معاشية لطلب المرعى والماء، وهو نشاط دائم تحدده الطبيعة وتبدلاتها المختلفة؛ إلا أنه كثيرا ما يتحول إلى معطى ثقافيا وعاملا سلوكيا يمنح المترحلين مزايا كثيرة كتعزيز القوة وإذكاء المخيلة[183]. ومن هنا، يتضح أن الترحال في المجتمع الصحراوي يعبر عنه بتعابير خاصة. فالمجموعة

---

[177] محمد بوزنكاض، (2012)، دراسة في التاريخ الاجتماعي للصحراء الأطلسية ما بين القرنين 17 و20، مركز الدراسات والأبحاث "مشاريع"، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط1، ص 41.

[178] محمد السويدي، (1986)، بدو الطوارق بين الثبات والتغير، دراسة سوسيوانثروبولوجية في التغير الاجتماعي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 32.

[179] محمد دحمان، (2006)، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، الرباط: مطبعة كوثر برانت، ط1، ص 21.

[180] الفوال، (بدون سنة النشر)، ص 310-311.

[181] دحمان، (2006)، ص 21.

[182] صبحي حنا، (1984)، ص 24.

[183] محمد الغربي، (1975)، الساقية الحمراء ووادي الذهب، الجزء الأول، الدار البيضاء: دار الكتاب، ص 63.

البشرية التي تعيش تبعا لنظام التنقل الذي يفرضه الترحال يسمون أنفسهم "أهل رحالة" أو "رحالة" بكل بساطة. كما يستعملون الاسم الخاص بالعربية الفصحى "أهل بوادي" وهم يربون ثلاثة أصناف من الماشية: الجمال والماعز والأغنام[184].

كما أن البداوة الرعوية ليست هي نمط البداوة الوحيد القائم بل هناك عدة أنماط أخرى متعددة، فهناك مجموعة من الدراسات قدمت محاولات لتصنيف هذا النمط من العيش والتي تختلف أحيانا وتتقارب أحيانا أخرى. حيث أعطيت في هذا الصدد تصنيفات مختلفة للبداوة من قبل عدد من الباحثين العرب والأجانب، كما قدموا هؤلاء الباحثين تفسيرات اجتماعية واقتصادية وبيئية وجغرافية للظاهرة الترحالية.

ولعل أقدم التصنيفات التي تناولت الجماعات البدوية ذلك التصنيف الذي قدمه عالم الجغرافيا الفرنسي جون ديسپوا (Jean Despois) والذي يميز بين الجماعات البدوية المستقرة التي تعيش على الزراعة وبين جماعات البدو الرحل الذين يطلق عليهم البدو الأصل، وهؤلاء هم الجماعات الرحل الذين يعيشون في حركة دائمة ويعتمدون على تربية الإبل ولا يكادون يستقرون في مكان واحد لفترات طويلة. وبين هذين الطرفين المتقابلين توجد كل درجات التحرك أو الاستقرار، بحيث يمكن أن نجد جماعات أنصاف الرحل أو أشباه المستقرين[185].

وقبل ذلك، عندما نعود إلى ابن خلدون نجد أنه كان سباقا إلى تصنيف البدو وذلك عندما وضعهم على مستويات ثلاثة تبعا لدرجة (ظعنهم) في الصحراء، وبعدهم عن الحضارة، فهناك البدو الذين يعتمدون على الإبل في معاشهم، ويطلق ابن خلدون على هؤلاء لفظ (الابالة) أي رعاة الإبل، ويليهم في الترتيب (الشاوية) أي أصحاب الشاة وهم رعاة الضأن. ووضع ابن خلدون معهم على نفس الدرجة (البقارة) أي رعاة البقر، ويأتي في أسفل السلم الممتهنون للزراعة، وهم الذين مارسوا نوعا من أنواع الاستقرار في الواحات وحول الآبار والوديان أو عند المراكز الحضرية القريبة[186].

---

[184] خوليو كاروباروخا، (2015)، دراسات صحراوية، ترجمة أحمد صابر وتقديم رحال بوبريك، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص 128–129.

[185] عالية حبيب وآخرون، (2009)، علم الاجتماع الريفي، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، ص 368.

[186] الفوال، (بدون سنة النشر)، ص 306.

وهكذا، نلاحظ أن أصناف المجتمع البدوي تختلف عن بعضها البعض بحسب الأساليب والوسائل التي يعتمدها كل منها في تحصيل معاشه، وبحسب ما إذا كانت الجماعة البدوية تعتمد على الزراعة، أم على تربية الأبقار والغنم والمعز، أم على تربية الإبل. لذا فإن الجهات الجغرافية التي يعيش فيها كل صنف من هذه الأصناف هي بدورها تختلف وتتباين ما بين مناطق فلاحية متوفرة على أسباب الاستقرار، ومناطق رعوية تشمل على حد أدنى من الخصوبة، ثم مناطق صحراوية قاحلة تقتضي من سكانها التنقل والترحال المتواصل[187]. وبيان ذلك، أن الأراضي القاحلة الجدباء تفرض على سكانها نمطا معينا من العيش، وبالتالي شكلا معينا من الحياة الاجتماعية: فهم يقتصرون على الضروري من الأقوات لأن مناطق سكناهم لا تجود إلا بذلك، وبعد مشاق جمة، ومتاعب كثيرة، فهم يضطرون إلى التنقل من مكان لآخر طلبا للعيش والماء لحيواناتهم التي بها قوام حياتهم[188].

كما حدد ابن خلدون أصناف البداوة في أربعة أشكال وهي[189]:

البداوة الخالصة: وتمارس الجماعة البدوية خلالها (الظعن) في قلب الصحاري، ومن الطبيعي أن يكون دليلها في ذلك هو الجمل بما له من قدرة وتحمل.

البداوة الجزئية: وهي أقل تأصلا نتيجة لعدم قدرة الحيوان الراعي على التوغل، داخل الصحراء، وقلة احتماله للجفاف الشديد، ومن هنا كان اللجوء إلى هذا الشكل من البداوة.

الاستقرار الجزئي: وضمن هذا الشكل يمارسوا البدو نوعا من الاستقرار بالقرب من المجاري المائية وعند حواف المناطق الزراعية.

الاستقرار الكامل: ويكون البدو خلاله قد استقروا تماما واستبدلوا بعاداتهم عادات ونظما حضارية جديدة، ولو يعودوا مرتبطين بالقيم البدوية الخالصة.

في حين نجد أن هناك تصنيف آخر للبداوة وهو للباحث الألماني ميرنر پول جيرهارت (Merner Paul-Gerhardt) والذي يصنف البداوة إلى أربعة أنماط وهي[190]:

- الرحل الخلص المقيمين في مناطق السهوب.

---

[187] الهراس، (1988)، ص 18.

[188] محمد عابد الجابري، (1994)، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 6، ص 146.

[189] السويدي، (1986)، ص 33.

[190] دحمان، (2006)، ص 24.

- أنصاف أو اشباه الرحل.
- رحل الصحراء.
- رحل الجبال الذين يقومون بتنقلات عمودية.

إن كل هذه الأصناف والأشكال المتعددة للبداوة، التي ذكرت في مختلف الكتابات التي اطلعنا عليها، يمكن حصرها في ثلاثة أنماط واضحة وكل شكل أو صنف من تلك الأشكال لابد وأن يدخل ضمن نمط من هذه الأنماط وهي كالتالي: البداوة الخالصة وتقوم على نمط الترحال والتنقل الدائم، وأشباه البدو يعتمدون نمط الترحال الموسمي، والبدو المستقرون يعتمدون على نمط الاستقرار. وربما هذه نفس الملاحظة التي أشار إليها عبد الغني مغربي عندما قال بأن ابن خلدون يقدم تصنيفات خاصة بالبداوة، تتضمن أنواعا اجتماعية ثلاثة هي: البدو الاقحاح، ونصف البدو أو المنتجعون، وأخيرا المزارعون الذين يكون توطنهم إلا نسبيا[191].

ولا شك أن الطابع الغالب في الصحراء الأطلنطية هو الشكل البدوي القائم على تربية الحيوان، وعلى التنقل انتجاعا للكلأ وبحثا عن نقاط الماء المنتشرة لمسافات بعيدة[192]. وبشكل أكثر دقة، نجد صنف البداوة الخالصة القائمة على الترحال الدائم يسود في منطقة تيرس جنوبا وأشباه البدو في منطقة الساقية الحمراء ونمط البدو المستقرين يوجدون أساسا في الواحات بمنطقة واد نون وجنوب درعة. وبالتالي فإن منطقة الواحات لا شك أنها أيضا كانت تعرف البداوة ولكن بداوة جزئية واستقرارا جزئيا، حيث كان سكان هذه المناطق يمارسون الانتجاع في مجالات واسعة تمتد من منطقة واد نون حتى الساقية الحمراء ويمتهنون الزراعة قرب نقط الماء.

وفي ظل التغيرات التي طرأت على الجماعات البدوية، وحركات التوطين والاستقرار التي أصبحت تميز حياة البدو، تذهب الباحثة علياء حبيب إلى تصنيف آخر يلائم مستويات وأنماط المجتمعات البدوية في الوقت الراهن، فهي تتحدث عن ثلاثة أصناف رئيسية[193]:

- **بدو الخلص**: والمقصود بهم سكان الصحاري من البدو الرحل أو أشباه الرحل.

---

[191] عبد الغني مغربي، (1988)، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة محمد الشريف بن دالي حسين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 131.

[192] الغربي، (1975)، ص 88.

[193] علياء حبيب، (2009)، ص 370.

- **البدو المتريف**: وهم تلك الجماعات البدوية التي استقرت بالقرب من القرى القريبة من الأودية والأنهار، وتحولت إلى حياة الفلاحة أكثر منها إلى البداوة، بمعنى امتهان الزراعة بشكل أساسي والسكن في بيوت مستقرة والانخراط في الحياة الريفية.
- **البدو المتحضر**: ويقصد بهم الجماعات البدوية التي استقرت أو تنتقل في محيط المدن أو المراكز الحضرية عموما. ويعتمد هؤلاء في نشاطهم الاقتصادي أساسا على التجارة والرعي.

وهكذا، وبعد أن تناولنا بعضا من الدلالات والمعاني المختلفة لمفهوم البدو والبداوة، نجد أنه من الضروري، بل من المفيد منهجيا، ونحن بصدد الحديث عن المجتمع البدوي، أن نتعرض ولو بقليل من التفصيل لخصائص التنظيم الاجتماعي عند البدو. على أساس أن من شأن ذلك أن يضع في الأذهان صورة أكثر وضوحا لمفهوم المجتمع البدوي.

- **التنظيم الاجتماعي للبدو**

إن النمط الاجتماعي للبدو الذي تفرضه حياة التنقل والترحال يقوم على مجموعات صغيرة تربطها علاقات قرابية وأسرية بالدرجة الأولى كالأخوة وأبناء العمومة التي تنتمي إلى العشيرة، ثم إلى القبيلة في نهاية الأمر. كما أن سكان الصحراء هم منظمون على أساس القبيلة، وهو التنظيم الاجتماعي الذي تقتضيه الحياة الاجتماعية من ذلك النوع القائم على الرعي والترحال[194]. فتحرك البدو وتنقلهم في إطار الممارسة الرعوية يتم ضمن العشيرة؛ وكل عشيرة تنتقل الى أماكن محددة وحسب غايات محددة. وتتوحد هذه المجموعات البدوية في تجمع قبلي، تشكل الأسرة فيه أصغر وحداته ويمتد هذا التجمع أو التنظيم حتى القبيلة الأم، ومع مرور الزمن ربما ضم معها عددا من القبائل الأخرى بفعل روابط الدم والمصاهرة وروابط التحالف والجوار[195].

ويمتاز هذا التجمع القبلي بنظام اجتماعي جماعي تتحدد من خلاله الأدوار والمكانات على أسس معينة ومحددة، حيث أن البدو يعيشون في إطار نظام عشائري محكوم بأعراف (Coutumes) مضبوطة ومتفق بشأنها، ومن خصوصياتهم تشكيل الجماعات وتوزيع الأدوار والمهام والمسؤوليات

---

[194] Mohamed Mahdi, (2015), Pastoralisme nomade au Sahara, center des études sahariennes, Impression Bourgreg, p 16.

[195] سعيد فالح الغامدي، (1981)، البناء القبلي والتحضر في المملكة العربية السعودية، جدة: دار الشروق، ط1، ص 7.

بخصوص حصص الماء وحركية القطعان داخل المراعي والنظر في كثير من النزاعات والخلافات الاجتماعية ومراقبة الطرق التجارية[196].

وهكذا، يعد التنظيم القبلي النظام الاجتماعي السائد في المجتمعات البدوية، حيث ينقسم البدو إلى قبائل، والقبيلة تنقسم إلى عشائر، والعشيرة إلى بدنات، والبدنة إلى عائلات. ونتيجة للنزاعات بين القبائل المختلفة وكثرة العدوان فيما بينها، فإن القبيلة أو العشيرة أصبحت وحدة يرتبط أفرادها برباط النسب والعصبية القبلية كما ينتظم إليها الأفراد أو العائلة أو القبيلة الضعيفة ممن يلجؤون إليها ويدينون إليها بالولاء[197].

غير أن مفهوم البداوة لا يجب أن يرتبط بالضرورة بالتنظيم الاجتماعي القائم على أساس القبلية وأقسامها الأساسية. ذلك أن هناك جماعات تمارس التجوال لا ترتبط بقبائل، وأخرى تعيش في الصحراء وترتبط بأصول سلالية لا تخضع للتنظيم القبلي. كما أنه نظرا لاندماج بعض الجماعات التي تنتمي إلى قبائل مختلفة عن طريق التزاوج، وبسبب عوامل التغير والتحضر التي أدت إلى إضعاف الإحساس بالانتماء إلى القبيلة، يفضل أن نميز بين البداوة وبين التنظيم القبلي وأن ندرك أن وجودهما معا لا يعني ضرورة وحتمية الارتباط بينهما[198]. وههنا، يمكن اعتبار الحياة البدوية الصحراوية نمط حياة متميز، يشكل نظاما اجتماعيا متفردا ببعض مظاهره الاجتماعية.

وبناء على كل ما سبق، يمكن تعريف المجتمع البدوي باعتباره واحد من المجتمعات البشرية التي تتميز بنمط عيش الترحل، وترتبط بمجال جغرافي هو الصحراء. المعروفة بضعف مواردها الطبيعية وقلة ساكنتها من البشر، الشيء الذي حكم طبيعة العلاقات الاجتماعية والبناء الاجتماعي والأنشطة الاقتصادية[199]. كما يمكن اعتباره ذلك المجتمع الذي يضم تلك المجتمعات المحلية التي تحيا في عصرنا الحاضر، حياة تقليدية تتميز بالبساطة وعدم التعقيد، فضلا عن تشابك العلاقات والنظم

---

[196] بوزنكاض، (2012)، ص 43.

[197] محمد عبده محجوب وفاتن محمد شريف، (2006)، الثقافة والمجتمع البدوي، الإسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر، ص 12.

[198] صبحي حنا، (1984)، ص 23.

[199] محمد دحمان، (2007)، "المجتمع الصحراوي بين الثابت والمتحول"، ضمن: الصحراء الأطلنتية المجال والإنسان، تنسيق رحال بوبريك، منشورات وكالة الجنوب بشراكة مع جامعة ابن زهر، ص 219.

الاجتماعية وتعدد وظائفها، وتمثل حالة حضارية أقل تقدما إذا قورنت بحالات حضارية أخرى متقدمة سواء كانت سالفة أو معاصرة[200].

ثالثا: حول معنى الواحة والمجتمع الواحي

شكلت الواحة إحدى أقدم أنماط الاستقرار البشري في المجتمعات الصحراوية، حيث تفيد البيانات الأثرية والتاريخية أن الإنسان طور منذ أمد بعيد نمطا من الاستقرار البشري في الواحات المنتشرة في الصحاري[201]. ولذلك اعتبرت الواحة مجتمعا "ميكروسكوبيا"، يحقق جوانب جل فروض النظريات، فحتى الخلدونية تجد في وقائع الواحات ما يعززها ويؤكدها، بل إن الصراع بين البدو والسكان المستقرين، أهل القصور، من العوامل المفسرة لكثير من أسرار عمران الواحة، كشكل السكن والنظام الاجتماعي والسياسي[202]. وذلك نظرا لما تتميز به من غنى إن على مستوى النظام الإيكولوجي البيئي أو على مستوى النظام الاجتماعي والاقتصادي في مختلف بنياته الأساسية.

والواحة مصطلح مصري قديم، وتعني بقعة من الخضرة في مجال قاحل، تعتمد على الري، وذات زراعة متنوعة، وسكان مستقرون، وعلى عكس ما هو شائع لا تتوفر كل الواحات على نخيل[203]. وتحتوي إلى جانب ذلك على نظام زراعي كثيف ومتنوع وسط محيط قاحل[204]. على أن هناك من يرى أن كلمة واحة إغريقية الأصل، وأن المصريين القدماء قد استعملوها للدلالة على المكان المخصص للزراعة بالصحراء أو المكان الخصب بها[205]. وفي هذا الإطار، يذكر حسن حافظي علوي أنه لم يستعمل المؤرخون والجغرافيون والرحالون المسلمون اسم الواحة للدلالة على

---

[200] الفوال، (بدون سنة النشر)، ص 151.

[201] مصطفى عمر التير، (1981)، "التحديث وتحطيم النمط التقليدي للحياة الاجتماعية بالواحة مثال المجتمع الليبي"، مجلة الوحدة، العدد 85، السنة 8، أكتوبر 1981، ص 74.

[202] بن محمد قسطاني، (2005)، الواحات المغربية قبل الاستعمار غريس نموذجا، الرباط: مطبعة المعارف الحديدة، ص 242.

[203] محمد أزهار، (1993)، "الإنسان والبيئة في الواحات السهبية القاحلة واحة ميسور نموذجا"، ضمن: أعمال ندوة المجال والمجتمع بالواحات المغربية، سلسلة ندوات 06، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، ص 127.

[204] محمد أيت حمزة، التوازن الإيكولوجي الواحي بين التنافس والتكامل، ضمن: أعمال ندوة المجال والمجتمع بالواحات المغربية، سلسلة ندوات 06، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، ص 78.

[205] حسن حافظي علوي، (2014)، دراسات صحراوية: الماء والإبل والتجارة، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط 1، ص 77.

الأماكن الخضراء في القفر سوى في معرض حديثهم عن الواحات الجنوبية لبلاد مصر[206]. حيث كان القدماء يقتصرون على تسمية مناطق الخرجة والداخلة من بلاد مصر باسم الواحات[207]. ومع ذلك تبقى الواحة جزء رئيسي في جغرافية وتاريخ الصحراء، فهي موجودة خلال الفترة التي وردت فيها أقدم معلومات عن المنطقة. فقد وردت الواحة في كتابات هيرودوت عندما ذكر أسماء بعض الواحات، وقد اقتصرت الكتابات القديمة على أسماء الواحات التي كانت مراكز إدارية، ومحطات لطرق القوافل[208].

وتعتبر الواحة مجال حيوي مهم للاستقرار والتوطن والاستيطان وسط نطاق صحراوي فقير، وهي عبارة عن أرض خصيبة بصحاري رملية ما كان لها أن تكون لولا الماء الذي أوجد ذلك الاخضرار وتلك الخصوبة[209]، فالواحة في معناها البسيط، تدل على وجود مجال حيوي محدود وسط محيط مفتوح وشاسع الأبعاد، وتكون قاعدة تواجده مرتبطة بمورد الماء النادر في الطبيعة، لذلك فهي نقطة خضراء وسط صحراء قاحلة نادرة العناصر الإحيائية ومحدودة الحيوية طبيعيا وإنسانيا[210]. كما أن الواحة هي أشبه ما تكون في الصحراء بالغابة مع فرق بسيط بينهما. ولا تمتاز الغابة عن الواحة سوى بكون هذه الأخيرة تمتاز بإنتاجها المتنوع من الثمار والخضر والزروع، هذا بالإضافة إلى أن الواحة تتوفر على الماء على الدوام[211]. والملاحظ في هذا الشأن، هو أن عنصر الاستقرار في الواحات يرتبط دائما بتواجد الموارد المائية، وهو ما يفسر وجود حياة بشرية تقوم على التوازن بين العناصر المكونة للمجال وهي المناخ والماء والتربة والنبات والإنسان والحيوان.

---

[206] حسن حافظي علوي، (2005/2004)، واحات بلاد المغرب من القرن 4ه/10م الى القرن 8ه/14م، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، جامعة محمد الخامس الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص 72.

[207] حافظي علوي، (2014)، ص 77.

[208] عمر التير، (1981)، ص 76.

[209] علي عياد بن حامد، (2001)، واحة هون: أثر التغيرات الجديدة على استغلال المياه وانتاج التمور ليبيا، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الجغرافية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ص 1.

[210] عبد الرحمان العثماني، (2013)، "التعمير والعمران الواحي قصور وواحات فكيك نموذجا"، ضمن: التراث الثقافي بجهة سوس ماسة درعة، تنسيق محمد أيت حمزة والوافي نوحي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة دراسات وأبحاث رقم 35، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ص 74-75.

[211] حافظي علوي، (2005/2004)، ص 72-73.

في هذا السياق، تجب الإشارة إلى أن الواحة تشتهر إلى جانب ما تشتهر به بتوفر المياه، وهي إما تكون في شكل عيون جارية أو آبار عميقة. إلا أن الزراعة في الماضي كانت محدودة، فالحيازات صغيرة، و لم تستطع الواحة في الماضي أن توفر إمكانات الحياة لعدد كبير من السكان لذلك كان عدد سكان الواحات باستمرار صغيرا لا يتجاوز بضعة آلاف في أحسن الأحوال[212]. حيث تشكل قلة الكثافة وقساوة العناصر المناخية أهم ما تمتاز به الواحة بالإضافة إلى عدم انتظام وعنف الظاهرة المناخية، سواء على مستوى مدة الجفاف أو قصر فترة الرطوبة، أو الفوارق الحرارية الجوية[213].

ومع أن الواحات تتشابه في صفات كثيرة إلا أن بعضها مر بظروف خاصة تركت طابعا ميز الحياة في هذه الواحات كتلك التي كانت محطات رئيسية لطرق القوافل، والتي احتضنت الإدارات الحكومية ولعبت دور العواصم الإقليمية[214]. ولعل واحات وادي نون تدخل في هذا الإطار، حيث شكلت ممرا أساسيا للعبور إلى البلاد الصحراوية. لكن الواحة تاريخيا مكان مترو لوحده تقطنه جماعة متجانسة تعيش حياة البساطة والكفاف، وعلاقتها بالعالم الخارجي محدودة جد. لذلك تطور في الواحة على مر العصور نسق من القيم التي تؤكد على التعاون والتكاثف والتضامن والوضوح وتبلورت هذه القيم في شكل عادات وتقاليد تنظم جميع الأنشطة الرئيسية وخصوصا تلك التي تربط الفرد بالجماعة[215].

وعموما يمكن تصنيف الواحات إلى ثلاثة نماذج رئيسية[216]:

- واحات داخل الصحراء.
- واحات قدم الجبال أو مخارج الأودية نحو الصحراء.
- واحات السهول، تسقى بمياه الأنهار التي تعبرها.

وهكذا إذن، وفي هذا السياق التوضيحي لمفهوم الواحة، يمكن تعريف المجتمع الواحي من منظور هذه الدراسة، باعتباره مجتمع تقليدي صغير الحجم يعيش بداوة جزئية ويميل إلى الاستقرار،

---

[212] التير، (1981)، ص 77.

[213] العثماني، (2013)، ص 74.

[214] التير، (1981)، ص 74.

[215] المرجع نفسه، ص 74.

[216] العثماني، (2013)، ص 85.

ويعتمد في الغالب على الزراعة وتربية الماشية، ويمتاز بالبساطة والتجانس والتعاون بين أعضائه، ويعيش في وسط بيئي وجغرافي يتوفر على ظروف طبيعية ومناخية ملائمة للعيش فيه، ويتكون من أفراد تربط بينهم علاقات اجتماعية بسيطة.

خاتمة

وختاما يمكن القول، إنه إذا كنا ننظر إلى المجتمع البدوي والواحي باعتباره مفهوما يكتسي أهمية بالغة في حقل الدراسات المتعلقة بالمجال الصحراوي، فإن الأمر يعود إلى ما يتمتع به هذا المفهوم من دلالات وأبعاد معرفية غنيةـــ سوسيولوجيا وأنثروبولوجيا وتاريخيا، مما يجعل من دراسة مفهوم المجتمع البدوي والواحي، حاجة ماسة وضرورة ملحة. بل إن المسألة هنا تتعلق بمفتاح أساسي ومركزي لأي مقاربة علمية تعنى بدراسة المجالات الصحراوية والواحية، بمختلف أشكالها وأنواعها.

لائحة المصادر والمراجع:

- باللغة العربية:

1. ابن خلدون، عبد الرحمان، (2004)، مقدمة ابن خلدون، بيروت: دار الشرق العربي.
2. ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري، (2003)، لسان العرب، المجلد الرابع عشر، منشورات محمد علي بيضون، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1.
3. إبراهيم، سعد الدين وآخرون، (1996)، المجتمع والدولة في الوطن العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط2.
4. إبراهيم حسن، سمير، (2012)، تمهيد في علم الاجتماع، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1.
5. التير، مصطفى عمر، (1981)، "التحديث وتحطيم النمط التقليدي للحياة الاجتماعية بالواحة مثال المجتمع الليبي"، مجلة الوحدة، العدد 85، السنة 8، أكتوبر 1981.
6. الدارجي، بوزياني، (2013)، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، الجزائر: مؤسسة بوزياني للنشر، ط1.
7. الجابري، محمد عابد، (1994)، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط6.
8. الجوهري، محمد محمود، (2010)، المدخل الى علم الاجتماع، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1.
9. أزهار، محمد، (1993)، "الإنسان والبيئة في الواحات السهبية القاحلة واحة ميسور نموذجا"، ضمن: أعمال ندوة المجال والمجتمع بالواحات المغربية، سلسلة ندوات 06، جامعة المولى إسماعيل، مكناس.
10. العثماني، عبد الرحمان، (2013)، "التعمير والعمران الواحي قصور وواحات فكيك نموذجا"، ضمن: التراث الثقافي بجهة سوس ماسة درعة، تنسيق محمد أيت حمزة والوافي نوحي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة دراسات وأبحاث رقم 35، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
11. الغامدي، سعيد فالح، (1981)، البناء القبلي والتحضر في المملكة العربية السعودية، جدة: دار الشروق، ط1.

12.الغربي، محمد، (1975)، الساقية الحمراء ووادي الذهب، الجزء الأول، الدار البيضاء: دار الكتاب.
13.السويدي، محمد، (1986)، بدو الطوارق بين الثبات والتغير، دراسة سوسيوانثروبولوجية في التغير الاجتماعي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
14.الشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي، (2014)، كتاب البادية ونصوص أخرى، تصحيح اللجنة العلمية لزاوية الشيخ محمد المامي بنواكشوط، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
15.الفوال، صلاح، (بدون سنة النشر)، دراسة علم الاجتماع البدوي، مكتبة غريب، دار قباء للطباعة.
16.الطبابي، حفيظ، (2000)، "بدو جهة قفصة: من الترحال الى التوطين (1881-1956)"، المجلة التاريخية المغاربية، منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان، العددان 97-98، السنة 27، ط1.
17.الهراس، المختار، (1988)، القبيلة والسلطة تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، الرباط: مطبعة الرسالة.
18.أيت حمزة، محمد، التوازن الإيكولوجي الواحي بين التنافس والتكامل، ضمن: أعمال ندوة المجال والمجتمع بالواحات المغربية، سلسلة ندوات 06، جامعة المولى إسماعيل، مكناس.
19.بوزنكاض، محمد، (2012)، دراسة في التاريخ الاجتماعي للصحراء الأطلسية ما بين القرنين 17 و20، مركز الدراسات والأبحاث "مشاريع"، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط1.
20.بركات، حليم، (2000)، المجتمع العربي في القرن العشرين بحث في تغير الأحوال والعلاقات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1.حنا، نبيل صبحي، (1984)، المجتمعات الصحراوية في الوطن العربي، القاهرة: دار المعارف، ط1.
21.حافظي علوي، حسن، (2005/2004)، واحات بلاد المغرب من القرن 4ه/10م الى القرن 8ه/14م، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، جامعة محمد الخامس الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
22.حافظي علوي، حسن، (2014)، دراسات صحراوية: الماء والإبل والتجارة، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1.
23.حبيب، عالية وآخرون، (2009)، علم الاجتماع الريفي، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1.
24.دحمان، محمد، (2006)، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، الرباط: مطبعة كوثر برانت، ط1،
25.دحمان، محمد، (2007)، "المجتمع الصحراوي بين الثابت والمتحول"، ضمن: الصحراء الأطلنتية المجال والإنسان، تنسيق رحال بوبريك، منشورات وكالة الجنوب بشراكة مع جامعة ابن زهر.
26.كاروباروخا، خوليو، (2015)، دراسات صحراوية، ترجمة أحمد صابر وتقديم رحال بوبريك، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
27.محجوب، محمد عبده، (بدون سنة النشر)، الاتجاه السوسيوانثروبولوجي في دراسة المجتمع، الكويت: وكالة المطبوعات.
28.محجوب، محمد عبده، (2009)، الأنثروبولوجيا الاجتماعية دراسات نظرية وتطبيقية، دار المعرفة الجامعية.
29.مدكور، إبراهيم، (1975)، "كلمة مجتمع" ضمن: معجم العلوم الاجتماعية، تصميم ومراجعة إبراهيم مدكور، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
30.مجموعة خبراء عرب في علم الاجتماع، (2010)، الموسوعة العربية لعلم الاجتماع، طرابلس: الدار العربية للكتاب.
31.محمد عبد الرحمان، عبد الله، (2006)، النظرية في علم الاجتماع، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

32.مغربي، عبد الغني، (1988)، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة محمد الشريف بن دالي حسين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب.
33.صابر محيي الدين ولويس كامل مليكة، (1986)، البدو والبداوة مفاهيم ومناهج، بيروت: منشورات المكتبة العصرية.
34.قسطاني، بن محمد، (2005)، الواحات المغربية قبل الاستعمار غريس نموذجا، الرباط: مطبعة المعارف الحديدة.
35.عياد بن حامد، علي، (2001)، واحة هون: أثر التغيرات الجديدة على استغلال المياه وانتاج التمور ليبيا، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الجغرافية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط.
36.غدنز، أنتوني، (2005)، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط1.

➢ باللغة الفرنسية:

1. Bataillon Claude et d'autres, (1963), Les Nomades et Nomadisme au Sahara, paris : UNESCO.
2. Daniel Nordman, (1989), « Le nomadisme ou le nomadisme d'un mot et d'un concept », dans : Le nomade l'oasis et la ville, URBAMA, N° 20, Tours, Insta print.
3. Ahmed Toufik Zainabi, « vers une disparation rapide du nomadisme au Sahara marocaine » : Le cas de Draa moyenne, dans : Le nomade l'oasis et la ville, URBAMA, N° 20, 1989 ; Tours, Insta print.
4. Mahdi Mohamed, (2015), Pastoralisme nomade au Sahara, center des études sahariennes, Impression Bourgreg.

مناهج البحث في التاريخ

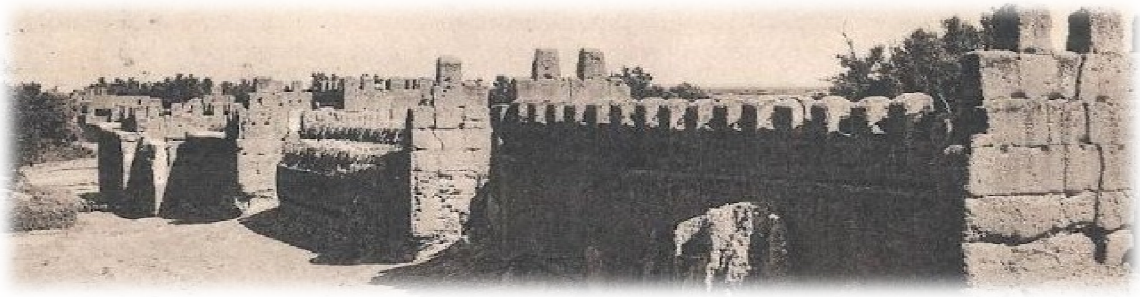

الجزء الأول ـ التاريخ :قضايا وإشكالات

خالد أوعسو
باحث في تاريخ المغرب
تخصص:تاريخ الهجرة

لا يحتاج الباحث داخل حقل العلوم الإنسانية إلى كبير معاناة ليدرك المكانة التي أضحى عليها علم التاريخ، لدرجة أن كل الأنظمة أسست مشروعيتها عليه وضمنت لنفسها استمرارية عبره.

إن هذه القيمة الاستثنائية جعلت مجال التاريخ أكثر المجالات شراسة على مستوى الاستثمار حتى أن سؤال الموضوعية داخله سيتم الارتفاع به إلى مستوى الإشكال المعرفي الذي حرك العديد من الأقلام ،سواء تعلق الأمر بفئة المؤرخين[217] ،أو أولئك الساعين إلى البحث عن مكان داخله ،أو حتى بالنسبة لأولئك الذين اتخذوه أفقا لتفكيرهم ولمطارحاتهم النظرية[218].

[217]ـ كمثال على ذلك كتاب د.عبد الله العروي ،مفهوم التاريخ ،المركز الثقافي العربي،ط الأولى بيروت1992
ـكمثال على ذلك إدوارد كار: ماهو التاريخ ، ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل ،المؤسسة العربية للدراسات [218]والنشر ،بيروت، ط الأولى، 1976

فبأي معنى نفهم الحاجة إلى التاريخ ؟وهل قدر هذا الأخير أن يتموقع بين سؤالي الموضوعية والذاتية ،وأن يظل حبيس علاقة ملتبسة بالزمن؟.

أ-وجود طلب اجتماعي: من الأكيد أن تحولات عميقة عرفتها المجتمعات الإنسانية ،وهي تحولات عرفت وثيرة سريعة منذ المرحلة الحديثة ،وككل تحول كانت له تداعيات على مستوى منظومة الثقافة ،لذلك كان طبيعيا أن يحظى التاريخ بأهمية قصوى ،فانطلاقة الرأسمالية، وظهور البورجوازية ، والإصلاح الديني ،وبروز الدولة المعاصرة ،وتدشين تصور جديد للإنسان ينظر إليه ليس باعتباره كائنا متعبدا بل طاقة إبداعية ،والتنامي التدريجي للمعرفة العلمية بكل ما يعنيه ذلك من إعادة الاعتبار للعقل والإيمان بقوانين الطبيعة...كلها عناصر جعلت من الإنسان مركزا جديدا وقيمة مطلقة تدور حولها كل هذه التحولات.

لقد كانت النتيجة المباشرة لكل ذلك أن عمدت القوى الجديدة -التي برزت على ساحة الميدان- إلى العودة على خط التطور التاريخي إلى مراحل تاريخية لشحذ الهمم وبناء ممتلك رمزي قادر على تأمين اللحمة الاجتماعية، وبالتالي تشكيل ذاكرة تاريخية بإمكانها توجيه المحطات القادمة . فالدول الناشئة سعت إلى بناء مشروعيتها ، والأمر نفسه يرتبط بالفلسفات الناشئة التي عملت كذلك على إرساء أسسها بالعودة إلى مراحل تاريخية لتأسيس استمراريتها[219].

لقد سمحت إذن تحولات العصور الحديثة بفتح باب التاريخ على مصراعيه ،ليعدو ميدانا للصراع بين مختلف القوى الصاعدة الساعية إلى بناء تصوراتها وسط منافسين قائمين أو محتملين . ولان الأمر يتعلق بمجال حساس من يمتلكه يمتلك الحاضر ويصنع المستقبل ،فقد تحول الماضي إلى ميدان مفتوح للصراع ، كل طرف يسعى إلى رسم معالم ما هو مسموح وما هو غير مباح ، فأضحى

[219]+-للتفاصيل أكثر انظر:هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي ، دار الطليعة بيروت ، 2005-

بذلك التاريخ عرضة للتسييج وللهوس الذي بلغ حد البحث عن احتوائه لأن في إخضاعه امتلاك لعقول الناس[220].

من هذا المنطلق أضحى علم التاريخ مطلبا فرديا وجماعيا ،ولأنه كذلك أصبحت المعرفة التاريخية فضاء لنسج مفارقة غريبة :إنها مفارقة الضبط والتحكم من جهة ، ومن جهة ثانية البحث عن اختراق الطابوهات وتحرير الذاكرة من التسلط[221]،وهي مفارقة أنتجت قضايا خلافية تلقي بظلالها على الفضاء التاريخي والاجتماعي والسياسي .فيكفي أن نشير على سبيل المثال إلى قضية الهوية ليتبين أن الأمر يتعلق بمسألة تتقاطع فيها كل ضروب التاريخ لتنتج عنها منظورات مشرعنة ومؤسسة وهي منظورات تتخذ من الاستمرارية والانكسارات التي حصلت في التاريخ مجالا للتجييش، وهو تجييش يتعدى توظيف الكلمات والمفاهيم ليحيل على السياقات والآثار التي ترهن الحاضر ولنا في الحضور العربي بالمغرب مثالا دالا .فهل الأمر يتعلق بفتح أم بغزو، هل هذا الحضور شكل انعتاقا أم انتكاسة لموقع المرأة، هل دخول الدين الإسلامي قوض المكونات الأخرى للهوية أم أنه أسهم في بناء ملامح تماسك هوياتي....

ولأن الأمر لم يعد يقتصر فقط على فاعلين محدودين في المكان ،تحول التاريخ إلى فضاء يؤثث اللعبة السياسية فوضعية اليهود ،وإبادة الهنود، والظاهرة الاستعمارية ...كلها قضايا تحيل على وضعيات تاريخية تغذي الشعور العام بشكل تتحول معه هذه القضايا إلى معيش يومي ينهل من الصراعات والتجاذبات التي تمس مجالات السياسة والاجتماع والذهنيات.

لقد تحول التاريخ إذن إلى أساس للفعل الإنساني ،ليعدو الإنسان فاعلا بالتاريخ ومفعولا به،ولأنه كذلك ازداد الطلب الاجتماعي على التاريخ ،ومعه أضحى المؤرخ أكثر جرأة في اقتحام مواضيع كانت إلى عهد قريب حكرا على مجالات معرفية أخرى[222].

+ يكفي أن نشير هنا على سبيل المثال إلى تمثل تاريخ المغرب بين مختلف الفرقاء السياسيين : بين من يضفي عليه منظورا ماديا(التقرير الإيديولوجي للاتحاد الإشتراكي مثلا)، وبين من يضفي عليه تصورا أخلاقيا(القوى الإسلامية")[220]

+الأمر يتعلق هنا أساسا –وعلى سبيل المثال – ببعض مكونات المجتمع المدني التي تحمل تصورا للمجتمع والتاريخ وهو تصور مخالف لما هو سائد كما هو الشأن بالنسبة للحركة الأمازيغية[221]

[222] يكفي أن نشير هنا –في الحالة المغربية- إلى موضوعات من قبيل الهجرة، سنوات الرصاص....

ب- وجود خصوصية: لا يتعلق الأمر بوجود طلب اجتماعي فقط ،بل أيضا بوجود خصوصية تميز علم التاريخ فتعطيه فرادته وتميزه مقارنة مع باقي أشكال المعرفة الإنسانية . صحيح أن التاريخ كمعرفة يشمل كل ما له بالزمن والإنسان ، حيث الزمن هنا زمن بشري بامتياز ، ولأنه كذلك فإنه ينتظم وفق رهانات الحاضر وتطلعات المستقبل[223]. من هذا المنطلق يحضر التاريخ كمعرفة كلية ليس بالمعنى الفلسفي ،بل بمنطق الترابطات التي تسم الزمن والتي تعكس قدرة الإنسان على الفعل الذي تنتج عنه أحداث يتدخل التاريخ لتفسيرها ومحاولة فهمها. بهذا المعنى حقق التاريخ تراكما ومكن ذاته من عدة منهجية مكنته من مساءلة ذاته ، وما السجال الدائر حول قوانين التاريخ ودور الإنسان ،حول السبب المفسر والعامل المساعد أو ما يعرف بالمحددات والموجهات في الحدث التاريخي، حول العلاقة بين التاريخ الكلي والخصوصي...وغير ذلك إلا دليل على التراكم المعرفي والمنهجي الذي حققته المعرفة التاريخية اليوم .

إن هذا المسار الذي أضحى جزءا من علم التاريخ ، أصبح يفرض على المؤرخ مساءلة حرفته بانتظام من خلال رسم معالم التقاطع والاستقلالية التي تميزه عن مجموعة من التخصصات القريبة منه منهجا وموضوعا .ذلك أنه بقدر ما أن التاريخ يترع نحو بناء منهج صارم يقوم على التحقيق والمقارنة والتشكيك وتنويع المصادر وتفكيك الدوافع والخلفيات ،بقدر ما أنه مليء كذلك بالثقوب والفراغات ،وهي صعوبة ترتبط بالحدث نفسه باعتباره ينفتح على إمكانات متعددة للقراءة. من هنا ظلت الوقائع ،ومعها ظل التاريخ يخفي وراءه معارك لها امتداد في النقاش العمومي ،لذلك لا غرابة أن يكون مثار إقبال من طرف كاتب المذكرات والإخباري والسياسي والفاعل المدني ....إن هذه الخصوصية جعلت التاريخ يحمل بين أحشائه ثقلا مضاعفا :من جهة النزوع نحو تطهير ذاته من كل الابتذالات التي تطاله ،ومن جهة ثانية إعادة الاعتبار للزمن بأحداثه وشخوصه[224].

---

[223]-إدغار موران ، مقدمات للخروج من القرن العشرين ، ترجمة انطوان حمصي، دمشق 1993 ص:294-300

[224] -R. Aron , introduction à la philosophie de l'histoire, Gallimard 1939, P : 328-331.

إن هذه الخصوصية التي تميز التاريخ حولته إلى أحد المجالات المعرفية التي يسعى الجميع لامتلاكها والحديث باسمها. ولأن الأمر كذلك أضحى التاريخ ذلك السهل الممتنع، فإذ كانت أحداث الماضي تتمظهر من خلال شواهد متعددة ،فإن الحديث باسمها ليس بالأمر اليسير. ولعل الأمر هنا يأخذ طابعا مزدوجا حينما يتعلق الأمر بالإنسان ، مادام الوجود الإنساني في جوهره وجود تاريخي ،ذلك أن الإنسان بقدر ما يسعى إلى إدراك تاريخيته ،فإنه يعمل في نفس الوقت على صناعة تاريخه[225] .من هذه الزاوية فالتفكير في التاريخ يحيل على مجموعة من التساؤلات تتعدى مجال اشتغال المؤرخ لترتبط بقضايا التحديد ،وكذا بالجوانب الإبستيمولوجية وبفلسفة التاريخ.

التاريخ: إشكالية التحديد

يحيل التاريخ في بعده العام إلى مجموعة من الأخبار التي تتناول أحوال القوم ،أي الدول والجماعات دون "الأفراد المنعزلين"، إلا إذا كانت أفعالهم ذات أثر على وضعيات ترتبط بالأخرين. التاريخ إذن إخبار يطال من حيث المبدإ كل ما له علاقة بالبشر في زمان ومكان محدد ،وهو إخبار يهتم بقضايا لها علاقة بأحوال الناس واهتماماتهم وفن عيشهم ،وكل ما له علاقة بأوضاعهم .لكن هذا المفهوم العام كان في حاجة إلى ضبط وتنظيم ،ولكي يتحقق ذلك كان لزاما أن يتحول إلى علم له قواعد وأصول ،ويقوم على أسس ومنهج يمكن ليس فقط من التحقق من الواقعة التاريخية، بل أيضا من التساؤل عن كيفية حدوث الوقائع[226] .

لا يتعلق الأمر إذن بغزارة المادة من حيث هي مادة ،بل بمدى مطابقتها وخضوعها لأدوات الفحص والتقصي، وبالتالي فالتاريخ هنا لا يعدو وقائع وروايات بدون حدود ،بل ممارسة تخضع لجملة قواعد يتوحد داخلها المؤرخون . ضمن هذا الإطار تبرز أسماء أدركت منذ وقت بعيد قيمة هذا الرهان ، وأدركت في الوقت نفسه أن التاريخ له علاقة فقط بالماضي من حيث مادته ،لكنه لا ينحصر فيه بقدر ما أنه يرتبط عضويا بحاجيات الحاضر وانتظارات المستقبل . فابن خلدون على سبيل المثال شكل نموذج الوعي بأهمية صناعة المؤرخ وقدرة هذا الأخير على النفاذ إلى" حقيقة "

[225] -J.Hours, valeur de l'histoire , PUF, p :68-73.

[226] -+ وهو ما نجده حاضرا عند ابن خلدون، انظر: عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة ، تقديم وتحقيق إيهاب محمد إبراهيم ، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع،2006،ص:11-18

الوقائع. ذلك أن معرفة قوانين العمران تقتضي الكشف عن القواعد التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية ،وذلك لن يتم إلا بالأخد بعين الاعتبار بمعايير التحقق من الواقعة التاريخية[227] .نحن إذن أمام قصدية تقيم علاقة بين التاريخ ووعي المؤرخ من حيث وجود مرجعية توجه عملية بناء أحدث التاريخ .

أ-التاريخ :الأصل والدلالة

يجمع الباحثون في هذا المجال على صعوبة تحديد أصل متفق عليه لكلمة التاريخ، وإن كان عدد من المهتمين بالموضوع ينتصرون لمجال ثقافي يعتبرونه بمثابة الأصل الذي انبثقت منه كلمة "تاريخ"، هكذا تم رهن اللفظ بحسب هؤلاء بين الأصل العربي، أو الفارسي، أو الغربي . [228]فجوتشليك على سبيل المثال رأى في أصل الكلمة ،التي تعني التعليم، بعدها الإغريقي ،حيث يرجع الفضل إلى أرسطو طاليس الذي ربط بين التاريخ وعملية السرد المنظم[229]. وهو موقف لا نجد له امتدادا عند مفكرين آخرين بدليل احتواء جميع اللغات على لفظ "تاريخ"، ما يعني أن للكلمة جدورا ضاربة في الحضارات الإنسانية[230]، لذلك يذهب أحمد ترحيني في رصده لأصل الكلمة إلى إقامة رابط بين التاريخ والشهر والقمر، حيث كانت الجماعات البشرية تشير إلى الشهر واليوم من الشهر من خلال متابعة تطور القمر[231]، هكذا انبثق التاريخ من هذه العلاقة الأولية التي نسجها الإنسان بالطبيعة والتي جعلته يبني علاقته بالزمن من خلال هذه العلاقة الأولية، وهو ما يدفع إلى التساؤل: هل مر التاريخ كلفظ وكمعنى أي كدلالة فنية من هذه العلاقة الحسية قبل أن يلتصق بالزمن ، وهو المعنى الذي يحيل إليه التاريخ اليوم ،حيث الزمن هنا لا يرمز إلى تلك الدلالة التبسيطية التي تشير إلى الخبر أو الحكاية التي تبقى عالقة بالذاكرة ومدونة على مستوى التواتر لتغدو تاريخا محفوظا[232]، بل تحمل في طياتها دلالة مركبة تقيم علاقة ربط بين الماضي والوعي بهذا الماضي

227- نفسه

+ حيث تشير بعض الدراسات إلى أن العرب أرخوا بدورهم بمشهور الحوادث وبولاية الملوك ، حتى جاء الإسلام واجتمعوا على تقويم واحد هو

228التقويم الهجري.انظر: هيئة التحرير "التاريخ عند المسلمين"مجلة الوعي الإسلامي ،عدد604، سبتمبر-أكتوبر 2015 ص:30-31

+ لويس جوتشليك، كيف نفهم التاريخ:مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي ، ترجمة عائدة سليمان وأحمد+ وأحمد مصطفى،دار الكتاب العربي

229 ومؤسسة فرنكلين للطباعة ،بيروت،1966ص :55-56

230هيئة التحرير "التاريخ عند المسلمين"مجلة الوعي الإسلامي ،ص:32-33-

231-محمد أحمد ترحيني،المؤرخون والتأريخ عند العرب،دار الكتب العلمية ودار الريف،بيروت،ص:6-8

232عبد الله العروي،مفهوم التاريخ ،الجزء الأول :الألفاظ والمذاهب ،المركز الثقافي العربي،ط الثالثة،ص:33-36

بحيث أصبح التاريخ يحيل على حوادث الماضي وعلى العلم الذي يحقق في هذه الحوادث، وهما دلالتان توجدان في مختلف اللغات[233].

ب–هل التاريخ إعادة أم بناء للماضي:

كما سبقت الإشارة ،نشأ مفهوم التاريخ ونما شأنه شأن جميع المفاهيم حينما انفصل عن الخبر بمعناه التقليدي ليقيم علاقة بالزمن كاستمرارية . هذا التحول هو حبيس لحظتين: لحظة وعي المؤرخ بصناعته حيث التاريخ أصبح ينظر إليه باعتباره مجالا معرفيا يمتلك معقولية وله حدود، وثانيا لحظة الإقرار بالارتباط الموضوعي بين التاريخ والزمن من حيث اعتبار التاريخ ليس مغازي وسير ووقائع ،بل تراكم وانتقالات وانعطافات وجب وعيها والكشف عنها ، وهو فهم لم يكن ممكنا أن يطال المِرخ التقليدي كالطبري مثلا ، حيث الماضي هنا ليس ماضيا مضى ، بل ماض مستعاد، ولكي يتحقق ذلك لابد من جهد أو علم يعنى بذلك ويكشف عما يطاله من تغير. على أن ما يجب التأكيد عليه هنا أن فعل الاستعادة المطلقة يعد عملا مستحيلا ، لأن هناك أشياء لم تترك أثرا بالمرة ، زد على ذلك أن الحوادث في حد ذاتها تعتريها ثغرات ، ما يجعل من بناء الماضي نسيانا لأشياء وتذكرا لأخرى. إما لعدم أهميتها ، أو لأنها لم تكن لها نتائج ظاهرة ، أو بالنظر للانتقائية التي يخضع لها الماضي في علاقته مع الحاضر. وهو ما يعني أن إشكالية البناء لا تطال الماضي كماض ، بل أيضا المؤرخ باعتباره المسؤول الأول عن كتابة التاريخ ، وهو الأمر الذي يعكس العلاقة المتداخلة بين الحدث كفعل والحدث كوعي، بين الزمن وبين الإنسان كناطق باسم الزمن[234] .

إذا كان التاريخ إذن عملية بنائية تتطلب مجهودا ، وليس معرفة معطاة بإمكان الجميع أن يصل إليها ، فالنتيجة أنه ليس حكيا أو استعادة غير موجهة للماضي ، بل هو علاقة بالزمن ، لكنها علاقة مؤسسة على شواهد، ولأنه محايث للبشر ويسري على حاضرهم، تم الانتباه إلى خصوصية التاريخ ، فإلى جانب الشواهد التي تعتبر بمثابة الركن المادي الذي يبني عليه المؤرخ مادته المعرفية ،

---

[233] قسطنطين زريق،نحن والتاريخ :مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ ،دار العلم للملايين،بيروت ،ط الثالثة،1974،ص:13-14
+وهو ما دفع العروي إلى اعتبار كلمة "تاريخ" ، إنما هي مجموع أحوال الكون في زمان غابر، ومجموع معلوماتنا حول تلك الأحوال
[234] انظر: عبد الله العروي،مفهوم التاريخ، ج الأول:الألفاظ والمذاهب، المركز الثقافي العربي، ط الثالثة ،1997،ص: 33-36

يتم كذلك اللجوء إلى المقارنة وإلى إخضاع الوقائع إلى ضوابط عقلية تنتظم بدورها وفق ضرورات الحاضر . من هذا المنطلق تشكل عملية بناء الماضي عملية ذات حساسية لأنها تسائل عمليا مسألة الحدود بين المعرفي والإيديولوجي ، وهي قضية سيتم تناولها لاحقا ، لكن قبل ذلك سيتم الوقوف عند مواصفات المؤرخ .

المؤرخ: المواصفات والضوابط.

من الأكيد أن علاقتنا بالزمن البعيد أو القريب أو حتى الراهن ، ليست علاقة عقلية وفقط ،بل بكل تأكيد هي علاقة تحضر فيها كذلك الجوانب الوجدانية والمصلحية بمعناها العام [235]، الشيء الذي يطرح قضية إعادة بناء الماضي وحدوده . ولأننا أمام قضية معرفية أساسا، عمد المشتغل على مجال التاريخ إلى وضع جملة ضوابط[236] بمثابة محددات تترع نحو تقليص هوامش الذاتية لصالح بناء خطاب موضوعي يتجه بالتاريخ نحو المعرفة القادرة على أن توحد جهودها بما يخدم الوظيفة الإبستيمولوجية والاجتماعية للتاريخ . من هذا المنطلق يمكن الوقوف على بعض المحددات:

التجرد: والقصد هنا تجاوز الذاتية التي لا تعني تغييبها بإطلاق، اعتبارا لصعوبة الحديث عن بناء للماضي وكأننا أمام أشياء وظواهر طبيعية لا تؤثر في حاضرنا. ولأن الحال يتعلق بتاريخ يصنعه البشر ، وهو موجه للبشر ،عبر وساطة البشر –كما يقول العروي– [237] فإن ذلك يرتب مجموعة بياضات ،وهي بياضات يقصدها المؤرخ في كثير من الأحيان لأنها تخدم مشروعه النظري . من هذا المنطلق فالمقتفي لأثر التاريخ عليه أن يضع مسافة بينه وبين سلبيتين رئيستين لا بد من التنبيه إليهما: الأولى: هي الحسم مع الانتقائية التي تجنح إلى التزوير. والثانية: القطع مع الدوغمائية التي تسقط في شباك المحاباة لطرف على حساب طرف آخر ، وفي كلتا الحالتين يتحول التاريخ إلى سلطة تابعة لسلطة عليا ترى في المعرفة التاريخية مجرد معرفة دعائية . إن التجرد معناه فتح آفاق

---

[235]+بالنظر لكون التاريخ يعتبر مرتكزا أساسيا في بناء الهوية الجماعية ،وبالتالي تشكيل إيديولوجية الجماعات والمجتمعات ، الأمر الذي يفسر توظيف التا ريخ كجزء من الصراع.
انظر: بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث في الهيرمينوطيقا، طبعة سوي ، ص: 418-426

[236]-حيث يشير ج. هورس إلى أهمية الصدق كجزء من عمل المؤرخ . انظر: J . Hours,Valeur de l'Histoire,Puf,p :70-72

[237]عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، ج الأول: الألفاظ والمذاهب، المركز الثقافي العربي، ط الثالثة ،1997،ص: 33-36

رحبة لعملية بناء الحدث بما يخدم حقيقة الماضي، ومعنى ذلك أن المؤرخ في سعيه نحو تحويل الحدث إلى خبر مروي ، فهو لا ينقل صورة الحدث كما حصلت في الزمن ، بل يعمل على تركيب ذلك الحدث وتأويله ، أي إخضاعه لجملة محددات تجعل الذات تنتصر لقراءة على حساب قراءات متعددة ،وهو ما يعني في نهاية المطاف أن الحدث ليس أحاديا في مضامينه وأفقه التأويلي ، بل هو محشو بجملة من المعاني الكامنة داخله ، والتي تجعل من استعادته قدرة على تفجير هذه المعاني الممكنة –كما يقول ريكور–. نحن إذن أمام ذاتية، لكنها ذاتية إيجابية، ذاتية تخدم التاريخ وتفتح أمام الحدث إمكانات متعددة لفهمها [238]. إن التجرد وفق هذا المعنى هو استحضار الشواهد وحفظ تراتبية الوقائع ، دون أن يعني ذلك الإقرار بحقيقة القراءة الواحدة ،وإلا لما أضحى التاريخ أحد أركان العلوم الإنسانية.

تعقل الوقائع: لا يتعلق الأمر هنا بالاستعراض الوصفي للأحداث ،وبالتالي الإحالة إلى جملة آثار تنتظم وفق سياقات كرونولوجية تتسم بالتواتر والتعاقب ، بل بتحليلها وعدم الاكتفاء برصدها من خلال الوقوف على عند الأسباب المفسرة والعوامل المساعدة ، وذلك حتى يستقيم فهم الحدث على نحو عقلاني . ولكي يتم ذلك ، فإن الأمر يقتضي الابتعاد عن تفسير التاريخ بآليات غير تاريخية تندرج ضمن دائرة الغيبيات أو الاعتقادات غير العقلانية . وفق هذا المعنى يصير الحدث أفقا قابلا للتعقل ،ولأنه فريد، فإن الحاجة تستدعي الإقرار بالطابع المركب للحدث من خلال التأكيد على تفاعل مختلف العناصر حتى تلك التي تبدو صغيرة ،فإنها أيضا لها اسهاماتها في بناء الواقعة التاريخية.

إن الطابع المركب والمعقد المرتبط ببناء الماضي ،يجعل مهمة المؤرخ حساسة ،فهو الذي يستنطق الأحداث، وهو الذي يبحث عن العلاقات ،وهو أخيرا الذي يكشف عن المصالح التي تختفي وراء كل ذلك . من هنا يصير البناء العقلي للوقائع ، وحده الكفيل بتحقيق هذه الغاية .

[238] -Paul Ricoeur, Histoire et Vérité , Ed Seuil , Paris , p :23-24

امتلاك منهج ورؤية: والمقصود بذلك، أن التاريخ شأنه شأن جميع العلوم وثيق الصلة بالمنهج [239]،لكن مع التأكيد هنا أن المنهج المعتمد يختلف جليا عما هو معمول به داخل المعرفة العلمية، إنه منهج يترع نحو توظيف آليات التفسير والفهم في إعادة بناء الواقعة التاريخية ، لذلك يلجأ الدارس للتاريخ إلى الشواهد المادية والمكتوبة والمروية ، وإلى بعض المهارات كالمقاربة والنقد الداخلي والخارجي والتركيب والاستنتاج [240]...بغرض رسم معالم الماضي بنوع من الغائية التي تهدف إلى خدمة أفق عقلي وأخلاقي محدد سلفا قد يرتبط بتصليب الهوية، أو تحرير الفرد، أو تحقيق فكرة العدالة....من هذا المنطلق ليس هناك تاريخ بدون هدف، لكن في الآن ذاته لا يتعلق الأمر بتاريخ للمواقف ، بل برهان حضاري تنخرط داخله الكتابة التاريخية [241]، وهو ما يعني الإقرار الموضوعي بالتلازم بين المنهج والرؤية التي تنتظم داخلها الكتابة التاريخية .

الانفتاح: وهي أحد الأركان الأساسية في عملية البناء التاريخي. لا يتعلق الأمر هنا بإدماج كل المعارف في عملية البناء بشكل يؤدي إلى إفقاد التاريخ خصوصيته واستقلاليته ، بل إقامة رابط موضوعي بين التاريخ وباقي مجالات المعرفة الإنسانية بما يساهم في توسيع أفق فهم المؤرخ . هكذا يستعين التاريخ بالآداب كوسيلة لإبلاغ الحدث بنفس الدرجة الذي هو في حاجة للآداب لدراسة الذهنيات عن طريق دراسة استعمالات اللغة وتأويلاتها ، ولأن الأمر يتعلق بوقائع مركبة، فإن الباحث في حقل التاريخ ملزم بتوظيف مناهج العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا وكذا الدراسات القانونية بمختلف فروعها بغرض تكوين صورة عن السياقات المؤسساتية والتشريعية والاجتماعية والاقتصادية باعتبارها عناصر محددة في استيعاب الظاهرة المدروسة وكذا تمظهراتها. من هذا المنطلق تبرز مجموعة من الأسماء التي أسست لنفسها تميزا على مستوى المناولة التاريخية بإدماج مناهج معرفية جديدة كانت إلى عهد بعيد مرتبطة بمجالات معرفية غير التاريخ كما هو الحال بالنسبة

---

[239]-عبد الأحد السبتي،"التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج"، ملاحظات أولية ، مجلة الجدل ، العدد 5-6 سنة1987،ص:26

-قيس ماضي فرو،المعرفة التاريخية في الغرب مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ،ط الأولى 2013ص:19-50 [240]

[241]عبد السلام بن عبد العالي ، دار توبقال للنشر ، ط الأولى،1988 ص: 71 يقول فوكو"التاريخ هو الكيفية التي يدبر بها مجتمع مادة وثائقية لا تنفصل عنه" ، انظر: م. فوكو، جينالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي

لشارل تيلي[242] C.Tilly(عالم سياسة)، ف.سيميو[243] F.Simiand(اقتصادي)، كيلنر[244] Gellner (انتروبولوجي، سوسيولوجي) ...وغيرهم ، وهي أعمال فسحت المجال أمام انفتاح التاريخ ، وبالتالي تحديد المقاربة التاريخية التي تترع نحو إدماج عناصر مساعدة في تحليل وضعيات تاريخية.

على العموم يبدو أن إشكالات التاريخ لا تنحصر فيما تم الإشارة إليه سالفا بقدر ما أن هذه الإشكالات تتعدى مجال اشتغال الباحث في التاريخ لترتبط بإشكالات معرفية تؤثر في صناعة المؤرخ ، الأمر الذي يجعل من سؤال التاريخ سؤالا مركبا يبدأ بمسألة التحديد لينتهي بالقضايا الإبستيمولوجية وبفلسفة التاريخ وهو ما سيتم تناوله بالتدريج.

---

[242] -C. Tilly, les Révolutions Européennes 1492-1992,Paris ,Ed du seuil,1993
Aussi :la France conteste :de 1600 à nos jours ,Paris Fayard,1986

[243] -F. Simiand , **Les fluctuations économiques à longue période et la crise mondiale** (1932). Paris , Félix Alcan, Collection: Les questions du temps présent 1932

[244] - Gellner ,Nations et Nationalisme, Payot, Paris 1989

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

مجلة
ليكسوس
في التاريخ والعلوم الانسانية
مجلة علمية الكترونية محكمة